كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

من مظاهر الرحمة في القرآن الكريم
دراسة بلاغية

إعداد

أ.د / أحمد حسن علي

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية بجرجا

(العدد الثلاثون – الجزء الثالث نوفمبر ٢٠١١م)

التمهيد

ويشتمل على شقين :

الشق الأول : مفهوم الرَّحْمَة .

الشق الثاني : وجوه ونظائر الرَّحْمَة في القرآن الكريم .

الفصل الأول

الأسرار البلاغية في الآيات التي تتحدث عن سعة رحمة اللّه تعالى

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول " سعة رحمة اللّه تعالى في آية القصاص "

المبحث الثاني"التحذير من القنوط من رحمة اللّه تعالى "

المبحث الثالث " الترغيب في الإقبال على اللّه تعالى "

الفصل الثاني

الأسرار البلاغية في الآيات التي تتحدث عن تفضل الله على عباده برحمته

وفيه ثلاثة مباحث وهي :

المبحث الأول: رحمة الله بعباده بإنزال القرآن إليهم
المبحث الثاني: رحمة الله بعباده بإرسال رسله
المبحث الثالث: رحمة الله بعباده بإدخالهم جنته

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،المبعوث رحمة للعالمين، محمد الصادق الآمين، الكريم الذي أتاه ربه جوامع الكلم فكان أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء .

وبعد ،،،

فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد،ومعجزة الإسلام الباقية إلى أن تقوم الساعة ، تكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل فقال سبحانه وتعالى :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ {سورة الحجر : ٩} .

عطاؤه لا ينفذ وعجائبه لا تنقضي ، وقد أودع الله في ألفاظ القرآن وتراكيبه أسراراً بلاغية مهما كتب عنها الدارسون والباحثون فلن يعطيها أحد حقها ، فإعجاز القرآن لم يستطع أن يجاريه أفصح فصحاء العرب وأبلغهم ،ومن مظاهر بلاغة القرآن الكريم حديثه عن الرحمة ؛ بل إن القران الكريم بجملته وتفصيله مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه – كما سيأتي الحديث عن ذلك خلال هذه الدراسة – والذي يستقصى المواضع التي ذُكرت فيها الرحمة ومشتقاتها يجدها تزيد على مائتي موضع ، أما الحديث عن الغضب لم يتجاوز العشرين موضعا، وهذا دليل واضح على سعة رحمة الله بخلقه، ويصدق ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي : " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَمَّا قَضَى الله الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي " . [1]

ولن تستطيع هذه الدراسة أن تعرض لكل المواضع التي ذكرت فيها الرحمة، لكنها

---

[1] الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري) ٦ / ٢٧١٢ ط / دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة ، تحقيق د/ مصطفى ديب البغا .

إطلالة سريعة على بعض هذه المواضع نطوف من خلالها بين مظاهر رحمة الله تعالى بعباده التي لا يستطيع بشر إدراك جميع مظاهرها؛ فرحمة الله بخلقه تتجلي في كل شيء خلقه لهم في هذه الحياة ، فهي محاولة بسيطة لإدراك بعض هذه المظاهر وبمنظور بلاغي من خلال الوقوف عند روعة التعبير، وبلاغة التراكيب ، وجمال الأسلوب ، راجيًا من الله العون والتوفيق ، سائلاً إياه الإخلاص والقبول .

وقد اقتضت الدراسة أن يأتي البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة وقد سار ترتيب البحث على النحو التالي :

. المقدمة .

ـ التمهيد : وتكلمت فيه عن مفهوم " الرحمة " وعن وجوه ونظائر " الرحمة " في القرآن الكريم .

. الفصل الأول : وتكلمت فيه عن " الأسرار البلاغية في الآيات التي تتحدث عن سعة رحمة الله تعالى " وفيه ثلاثة مباحث:

. المبحث الأول : سعة رحمة الله في آية القصاص .

. المبحث الثاني : التحذير من القنوط من رحمة الله .

. المبحث الثالث : الترغيب في الإقبال على الله.

. الفصل الثاني : وتكلمت فيه عن " الأسرار البلاغية في الآيات التي تتحدث عن تفضل الله على عباده برحمته " وفيه ثلاثة مباحث :

. المبحث الأول : رحمة الله بعباده بإنزال القرآن إليهم .

. المبحث الثاني : رحمة الله بعباده بإرسال رسله .

. المبحث الثالث : رحمة الله بعباده بإدخالهم جنته .

. الخاتمة : فيها أهم النتائج المتوصل إليها خلال هذا البحث .

أولاً: مفهوم " الرَّحْمَة "

الرحمة في اللغة : هي الرقة و التعطف والمرحمة و مثله ترحمته – ترحمت عليه – وتراحم القوم : رحم بعضهم بعضا .

وهي من مادة { ر . ح . م } ، و { رَحِمَ } عليه : دعا له بالرَّحْمَة ، و{استرحمه } سأله الرَّحْمَة ، و{ الرَّحْمَة } الخير والنعمة ، و { الرَّحْمَة } : المغفرة.[١]

والرَّحْمَة في الاصطلاح : هي إرادة إيصال الخير ، [٢] أو هي عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم [٣] وقيل هي الخير والنعمة [٤] وقال الراغب: هي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقال الغزالي : الرَّحْمَة ما يوافي المرحوم في ظاهرة وباطنه أدناه كشف الضر وكف الأذى وأعلاه الاختصاص برفع الحجاب[٥] وقيل: الرّحمة : رِقَّةٌ تقتضى الإحسان للمرحوم وقد تُستعمل تارة فى الرقّة المجرّدة، وتارة فى الإحسان المجرّد عن الرقّة، نحو: رحم الله فلانًا. وإذا وُصف به البارىءُ تعالى فليس يراد به إلاَّ الإحسان المجرّد دون الرقَّة. وعلى هذا رُوى أَنَّ الرحمة من الله إنعام وإفضال ، ومن الآدميِّين . رقَّة وتعطُّف . [٦]

---

[١] لسان العرب بن منظور مادة رحم ١٢ /٢٣٠ دار صادر – بيروت الطبعة الأولى.

[٢] التعريفات للجرجاني ص / ١٤٦ / باب الراء / ط / دار الكتاب العربي بيروت – تحقيق إبراهيم الإبياري.

[٣] الفروق اللغوية ص ٢٤٦ / لابن هلال العسكري ط / دار العلم والثقافة القاهرة تحقيق د محمد إبراهيم سليم.

[٤] الماحي الفصيح / باب الراء / ج ١٠ / ص ٤ / مجمع اللغة العربية.

[٥] تاج العروس للزبيدي / ج ٣٢ / ص ٢٢٦ / تحقيق مجموعة من المحققين / ط دار الهداية.

[٦] بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١/٨٠٥ دار الكتب العلمية.

ومن مشتقات الرحمة في القرآن الكريم : [1]

قال تعالى ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ﴾ " رَحِمَ {سورة هود:٤٣ } .

وقال تعالى : ﴿ وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه {سورة غافر : ٩} .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِي أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ "رحمنا" { سورة الملك ٢٨} .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ " رَحِمْنَاهُمْ {سورة المؤمنون: ٧٥ } .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ "رَحِمَهُ " {سورة الأنعام: ١٦} .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ "رْحَمْنَا " {سورة الأعراف : ٢٣} .

وقال تعالى : ﴿ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ " وَتَرْحَمْنِي " {سورة هود : ٤٧} .

وقال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ويرحم {سورة العنكبوت: ٢١} .

وقال تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ " يَرْحَمْكُمْ " {سورة الإسراء : ٥٤ } .

---

[1] انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي ط – دار الحديث – القاهرة ٢٠٠١ م.

وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ " يَرْحَمْنَا " {سورة الأعرف :١٤٩} .

وقال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ " سَيَرْحَمُهُمْ " {سورة التوبة : ٧١} .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ " وَارْحَمْ " {سورة المؤمنون : ١١٨} .

وقال تعالى ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ " وَارْحَمْنَا " {سورة البقرة : ٢٨٦ } .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ " ارْحَمْهُمَا " {سورة الإسراء : ٢٤} .

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ " تُرْحَمُونَ " [١] . { سورة آل عمران : ١٣٢} .

[١] انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / ص ٣٧٤.

ثانياً : وجوه ونظائر " الرَّحْمَة " في القرآن الكريم:

للرحمة وجوه ونظائر كثيرة في القرآن الكريم نذكر منها:

الرأفة : ومنه قوله تعالى: ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ {سورة الحديد : ٢٧}

الإسلام : ومنه قوله تعالى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ{ سورة البقرة : ١٠٥} .

الإيمان : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ { سورة هود : ٢٨} .

الجنة : ومنه قوله تعالى : ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ {سورة آل عمران : ١٠٧} .

المطر : ومنه قوله تعالى : ﴿ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ { سورة الأعراف : ٥٧ } .

النعمة : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ {سورة النور: ١٠} .

النبوة : ومنه قوله تعالى :﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ { سورة ص : ٩ } .

وقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ { سورة الزخرف : ٣٢ } .

الرزق : ومنه قوله تعالى : ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ { سورة الإسراء : ١٠٠} .

النصر والفتح : ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً {سورة الأحزاب : ١٧} .

العافية : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾{سورة الزمر : ٣٨} .

المودة : ومنه قوله تعالى : ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾{ سورة الحديد : ٢٧ } .

السعة : ومنه قوله تعالى : ﴿ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ { سورة البقرة : ١٧٨} .

المغفرة : ومنه قوله تعالى ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ { سورة الأنعام : ١٢} .

العصمة : ومنه قوله تعالى : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ﴾ {سورة هود : ٤٣} .

القرآن : ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ {سورة يونس : ٥٨} .

المنة : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [١] { سورة القصص : ٤٦} .

---

[١] انظر الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز تأليف أبي عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني ص٢٢٥ وما بعدها تحقيق عربي عبد الحميد علي، ط دار الكتب العلمية / وكتاب الإتقان في علوم القرآن / للحافظ جلال الدين السيوطي – تحقيق أحمد بن علي / جـ ١ صـ ٤٩٥ طـ دار الحديث " القاهرة .

المبحث الأول

سعة رحمة الله تعالى في آية القصاص

إن رحمة الله تعالى تجلت في كل شيء في هذه الدنيا ، ولا نستطيع أن نحصر رحمته تعالى في شيء معين، فمن مظاهر رحمته تعالى الواسعة بالأمة، ما شرعه لهم في القصاص، فقد كان الحكم في الأمم السابقة مبني علي الإلزام دون التخيير، أما الأمة الإسلامية فقد خيرها الله بين القصاص والعفو والدية، قال قتادة:" رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فقد كان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو وليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش" [1] فسبحان من وسعنا برحمته ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾.{ غافر: ٧ } .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ {سورة البقرة : ١٧٧} .

سبب نزول هذه الآية : " أنه كان بين حيين من العرب دماء في الجاهلية ، وكان لأحدهما طول ، أي فضل وشرف على الآخر ، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد منا ، والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت الآية ، وأمرهم أن يتبارؤوا [2] ولأن الآية تتحدث عن حكم من أحكام التشريع ، ذات

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٦٥/٢ تح مصطفي السيد محمد وآخرون ط/ مؤسسة قرطبة الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.

[2] راجع أسباب النزول للواحدي ص ٣٠ ط / دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة الناشر مؤسسة الحلبي.

بال في صلاح المجتمع الإسلامي واستتباب نظامه وأمنه حين صار المسلمون بعد الهجرة جماعة ذات استقلال بنفسها ومدينتها ، فإن هذه الآية كانت من أول ما أنزل من آيات بالمدينة عام الهجرة . [١]

أما عن البلاغة في الآية: فقد افتتحت الآية الكريمة بالأسلوب الإنشائي الذي لا يحتمل الكذب والصدق ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ نداء حاني يطلب إقبال المدعو على الداعي بحرف ناب مناب أدعو ، وهو " يا " وهي في الأصل لنداء البعيد ، للدلالة على أن المنادى فيه شيء من البعد ، فعليه أن يصغى لما ينادى عليه به ليزداد بهذه الطاعة قربا [٢] ، وقيل: نادى بها القريب لنكتة ، وهي إظهار أنَّ الخطاب المتلوَّ معتنى به ، وقد أتى النداء بـ " يا أيها " دون أي أداة من أدوات النداء وذلك لأن فيها أوجهًا من التأكيد والتنبيه ، وأيضًا ما في " ها " من التنبيه، وأيضًا ما فيها من التدرج من الإبهام في " أي " إلى التوضيح والمقام يناسب المبالغة والتأكيد ؛ لأن كل ما نادى به الله عباده من أوامر ونواهٍ ، وإخبار ووعد ووعيد ، وغير ذلك من أوامر عظام ، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، لكنهم غافلون ، فاقتضى الحال أن ينادوا بالأبلغ . [٣]

وتتجلى البلاغة في نداء " أمة الإجابة " بقوله : " يا أيها الذين آمنوا " تذكيرًا لهم بالعهد الذي عاهدوا الله عز وجل عليه ، وهو الإيمان بما أمرهم بالإيمان به،وكأنه يحثهم بهذا الوصف على أن يقبلوا على ما يأمرهم به فيأخذوه وعلى ما

---

[١] يراجع التحرير والتنوير / تأليف الشيخ محمد الظاهر بن محمد الطاهر عاشور / ج ٢ / ص ٥٠١.

[٢] يراجع شذرات الذهب دراسة في لبلاغة القرآنية د محمود توفيق ص ٣٦.

[٣] يراجع معترك الأقران / ج –١ ص ٣٣٩ . ٣٤٠ تحقيق أحمد شمس الدين ط/ دار الكتب العلمية.

ينهاهم عنه فيجتنبوه .

وقد قال " ابن مسعود " إذا ما سمعت الله عز وجل يقول : يا أيها الذين آمنوا " فأرِعْه سمعك فإنَّ من بعده خيرًا يأمر به أوْ شرًا ينهى عنه .

وجاء تعريف المنادَى باسم الموصول دلالة على أنه المعروف بالصلة التي هي الإيمان ، وكأنَّ هذا الإيمان هو أجل ما يعرف به ذلك المنادَى ، فهو شرفه الذي عليه أن يستمسك به ، وأن يفخر بنعته به وأن يسعى إلى زيادته وتثبيته بالإكثار من الطاعات ، والفرار من السيئات " [1] ، يؤكد ذلك مجيء صلة الموصول بصيغة الماضي " آمنوا " ليوحي بأن الإيمان قد صار صفة ملازمة لهم منذ زمن .

وفي قوله (آمنوا) حذف للمتعلَّق بالفعل ، وفيه دلالة على أنهم آمنوا بكل ما أمر الله عز وجل الإيمان به لم يتركوا منه شيئًا ؛ لأن من آمن بما أمر الله تعالى بالإيمان به وترك شيئا واحدًا لم يؤمن به فهو كافر لا يدخل في زمرة الذين آمنوا ، فبحذف المتعلق يثبت لهم الإيمان المطلق . [2]

ثم بدأ الحديث عن الحكم العظيم الذي فيه رحمة لهم وللأمة الإسلامية جميعًا بعد هذا الاستهلال الحاني فقال: " كتب عليكم القصاص " .

ومعنى " كتب عليكم " فرض وأوجب ، فالكتب بمعني الفرض ، وهو مستعمل في الأمور المخلدات الدائمة كثيرًا ، أي أنه حق لازم للأمة لا محيد عن الأخذ به ، فضمير عليكم لمجموع الأمة على الجملة ، ثم لما كان لا يتهيأ للمؤمنين جميعًا أن يجتمعوا للقصاص أقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص ، فالخطاب للسلطان بإقامة القصاص ، ولغيره بأن يعينه عليه ، وأتى بالفعل " كتب " بمعنى

---

[1] شذرات الذهب ص ٣٦.

[2] يراجع شذرات الذهب ص ٣٨.

الماضي الذي فيه معنى الحصول ؛ لأن أصل الكتابة نقش الحروف في حجر أو على شيء ، والكتابة هي التي يثبت بها العلم ، و بها ينتقل من جيل إلى جيل ؛ ولهذا عبر سبحانه وتعالى باللفظ والكتابة " كتب " ليثبت حق أهل القتيل.[1]

وفي " كتب استعارة ، حيث استعيرت الكتابة للفرض بجامع الثبوت والإلزام في الكل وحذف المشبه وتُنوسي التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ثم اشتق من الكتابة " كتب " وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

و﴿كُتب﴾ فعل حذف فاعله أو المسند إليه ، والسر في حذفه العلم به ؛ لأنه ليس هناك من يملك الفرض والإلزام إلا الله سبحانه وتعالى .

ومعني الإلزام واضح من قوله : " كُتب" يؤكده تقييد الفعل بالجار والمجرور " عليكم " فقد قال العلامة الآلوسي : " وأصل الكتابة الخط ، ثم كنَّي به عن الإلزام وكلمة على صريحة في ذلك [2] . والجملة الفعلية " كتب عليكم القصاص " جواب النداء .

والقصاص : اسم لتعويض حق جناية أو حق عزم على أحد بمثل ذلك من عند المحقوق إنصافاً وعدلاً ، فالقصاص يطلق على عقوبة الجاني بمثل ما جنى ، وعلى محاسبة رب الدين بما علية للمدين من دين يفي بدينه ، فإطلاقاته تدل على التعاون والتناصف في الحقوق وهو بوزن { فِعال} وهو وزن مصدر فاعل من القصِّ وهو القطع ، ومنه قولهم طائر مقصوص الجناح ، ومنه سمي المقص لآلة القص ، أي القطع ؛ لأنه يقطع النزاع الناشئ قبله ، ولذلك سمي القدُّ وهو تمكين

---

[1] انظر روح المعاني للآلوسي ٢ / ٤٩ ط / دار إحياء التراث العربي والتحرير التنوير ٢ / ٥٠٢.

[2] روح المعاني ٢/ ٢٤٤.

ولي المقتول من قتل قاتل مولاة قصاصاً.[١]

وفي القصاص استعارة حيث استعار القصاص للتناصف بجامع القطع، أي قطع النزع الناشب قبله في الكل وحذف المشبه وصرح بالمشبه به وتناسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية .

وقد ثبت بهذه الآية شرع القصاص في قتل العمد ، وحكمة ذلك ردع أهل العدوان عند الإقدام على قتل الأنفس إذ علموا أن القتل جزاؤهم ، فإن الحياة أغلى شيء على الإنسان، ومن حكمة ذلك تطمين أولياء القتلى بأن القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتليهم.[٢]

وفي قوله تعالى ﴿ في القتلى ﴾ الجار والمجرور متعلق بكتب ومعنى ﴿في﴾ ظرفية مجازية ، والقصاص لا يكون في ذوات القتلى ، فتعين تقدير مضاف ، وحذفه هنا ليشمل القصاص سائر شئون القتلى ، وسائر معاني القصاص، فهو إيجاز حذف ، وتعميم في الحكم ، فانظر كيف يكون ترك الذكر إبلاغًا في الإبانة عن معانيك ، فليست العبرة في بيان العربية أن يكثر ملفوظ لسانك ، بل العبرة أن يفيض مكنون جنانك بالمعنى الذي يؤديه ملفوظ لسانك ، " فإنك ترى فيه ترك الذكر ، أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ونجدك ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذ لم تبن [٣] وجمع القتلى باعتبار جمع المخاطبين أي في قتلاكم والتعريف في القتلى تعريف الجنس ، والقتيل هو من يقتله غيره من الناس ،

---

[١] انظر التحرير والتنوير / ٢ / ٥٠٢ – ٥٠٣.

[٢] انظر التحرير والتنوير ٢ / ٥٠٢.

[٣] دلائل الإعجاز عبدالقاهر الجرجاني ص ١٤٦تحقيق محمود محمد شاكر ط / مطبعة المدني بالقاهرة.

والقتل فعل الإنسان إماتة إنسان آخر فليس الميت بدون فعل فاعل.[١]

وقوله عز وجل ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾

﴿ الحر ﴾ مبتدأ و ﴿ بالحر ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ، تقديره {الحر مأخوذ بالحر} والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً [٢] " وفائدة الاستئناف البياني الذي هو نوع من أنواع الفصل ابتدأ الكلام على جواب لسؤال مقدر ، وكذلك يتم به الكلام المنبثق من الجملة السابقة التي هي كالأم لهذه الجملة، فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ومقطوعاً موصولاً معاً . [٣]

ففي قوله ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ سؤال يرد على ذهن السامع ؟ كيف هذا القصاص ؟ وكيف يتم هذا القصاص ؟

فجاءت الآية ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ كأنها جواب لهذا السؤال المقدر .

أيضا في قوله ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد ﴾ لون من ألوان الإطناب البلاغي ، وهو الإيضاح بعد الإبهام حيث أبهم أولاً حكم القصاص ثم بينه ووضحه بعد ذلك[٤]. وتكمن بلاغة الإيضاح بعد الإبهام في أنها تشير إلى المعنى مرتين ، مرة مجملة

---

[١] انظر التحرير والتنوير ، ج / ٢ ، ص ٥٠٣.

[٢] الاستئناف البياني هو نوع من أنواع الفصل " شبة كمال اتصال " وهو كون جملة الثانية قوية الارتباط بالأولى لوقوعها جواباً عن سؤال يفهم في الجملة الأولى فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال / انظر جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع / تأليف السيد المرحوم احمد الهاشمي / ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان / ص – ٢٠٣ – ٢٠٨ .

[٣] راجع دلائل الإعجاز في علم المعاني تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق / السيد محمد رشيد رضا / الناشر / دار المعرفة للطباعة ، ط / ١٩٧٨ م ، ص / ٢٣٨ ، ج / ١.

[٤] راجع معترك الأقران ، ج ١ ، ص – ١٧٢.

ومرة مفصلة فيتضح المعنى أكثر ويتمكن في ذهن السامع .

وجملة " الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى " بيان وتفصيل لجملة ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ فالباء في قوله تعالى "بالحر" وما بعده متعلقة بمحذوف دل عليه معنى القصاص [1] والتقدير " الحر مأخوذ بالحر والعبد مأخوذ بالعبد والأنثى مأخوذة بالأنثى " . ففيه إيجاز بالحذف حيث جاء ببعض من كلام أطول منه .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن تقديم الحُرِّ على العبد وتقديم العبد علي الأنثى يقتضي الشرف والفضل في الرتبة فقال : "وفي تقديم الحر على العبد وتأخير الأنثى على العبد بلاغة من حيث التقديم والتأخير في العطف ، فالعطف بالواو لا يقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، فيجوز التبادل في المواقع بين المعطوف والمعطوف عليه وإن تعددت المعطوفات، والسياق اقتضى هذا الترتيب للدلالة على السبق بالشرف والفضل ، فالمقدم أعلى رتبة في الشرف يليه في ذلك المعطوف ، فالحر أشرف من العبد والعبد أشرف من الأنثى باعتبار ذكورته .[2]

إلا أن كون التقديم للرتبة والشرف وجهة نظر يُردُّ عليها من خلال سبب نزول الآية، وهو توجيه المؤمنين إلى إقامة العدل في القصاص ، دون النظر إلى أفضلية أو شرف في الرتبة ،كما أن الأنثى التي قال عنها الباحث أنها أخرت لفضل الذكورة علي الأنوثة إنما هي داخلة تحت مسمى الحر ومسمى العبد – فالحر يشمل الذكر

---

[1] انظر التحرير والتنوير ، ج – ٢ ، ص / ٥٠٣.

[2] انظر بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، تأليف الدكتور : علي أبو القاسم العون / ط / ١ ، دار المدار الإسلامي ، توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس – الجماهيرية – ج / ٣ ، ص / ٩٣١ – ٩٤٨.

والأنثى ، وكذلك العبد – وإنما أعيد ذكرها للإشعار بتساويها مع غيرها من الذكور في الحقوق ، وأن القصاص يكون بين النساء كما يكون بين الرجال ، يقول الشيخ ابن عاشور " وخُصَّت الأنثى بالذكر مع أنها مشمولة لعموم الحر بالحر والعبد لئلا يتوهم أن صيغة التذكير في قوله : { الحر } وقوله: { العبد } مراد بها خصوص الذكور .

" ثم يقول " فالتقيد لبيان عدم التفاضل بين أفراد النوع ولا مفهوم له فيما عدا ذلك من تفاضل الأنواع إثباتاً أو نفياً . [1]

فليس هناك شرف في سبق الحر والعبد ثم الأنثى أو تقديم الحر والعبد وتأخير الأنثى ، لأن في ذلك تبيينًا وتوضيحًا فقط ، وكثر في القرآن مثل هذا التقديم ، ومنه تقديم المؤمنين على المؤمنات في القرآن الكريم .

والجملة في قوله تعالى: ﴿ العبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿ الحر بالحر ﴾ وهذا العطف أفاد التشريك في الحكم وهو القصاص .

وأيضًا: من ملامح البلاغة أنه طابق بين الحر والعبد، فقد جعل هذا الطباق[2] في الآية الكريمة تناغمًا يطرب السامع ويوصل المعنى .

وقوله تعالى: ﴿ فمن عُفي له من أخيه شيءٌ فاتباع بالمعروف ﴾ لما ذكر وجوب القصاص ، وهو أساس العدل ، ذكر هنا العفو ، وهو مقتضى التراحم والفضل فقال " فمن عُفي له " أي فالقاتل الذي ترك له " من " دم " أخيه المقتول "

---

(1) تفسير التحرير والتنوير ٢ / ٥٠٣.

(2) الطباق : الجمع بين المتضادين في الجملة ، وهو حقيقي أو مجازي ، وفي الآية جاء على الحقيقة / معترك الأقران في إعجاز القرآن ١ / ٣١.

شيء " أي من العفو ، ولو يسيرًا ، كأن عَفى بعض أولياء الدم – ولو واحد فيما إذ تعددوا سقط عنه القود – أي القتل – ووجبت الدية ، فحينئذ وجب على العافي الذي هو ولي الدم " اتباع " القاتل ومطالبته " بـ " الدية على الوجه " المعروف " شرعاً ، وهو أن يطالبه بالمال من غير تشديد عليه ولا عنف .[١]

الفاء في " فمن " الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره " إذا عرفتم أن القصاص " مكتوب عليكم وأردتم بيان ما إذا عفي عنه ، فأقول لكم " من عفي له من أخيه شيء " فشرطي الإتيان بالمعرف [٢] ففيها إيجاز بالحذف حيث حوت وراءها كلاماً كثيرا فهم من السياق .

ومن خلال سياق الآية الكريمة ترى أسلوب الشرط الذي يفهم منه أن الله شرط على من عفا وأخذ الدية أن يأخذها من القاتل بالمعروف ، وهذه رحمة من الله حتى مع المذنب ، وفيه توطين لنفس ولي الدم على كسرها عن حدة ما تجره إليها أحقاد الجنايات ، ثم أمر المؤدي – وهو القاتل – أن يؤدي بإحسان فقال : " وأداء إليه بإحسان ؛ لئلا يجمع إلى جنايته سوء القضاء ؛ بل عليه أن يلزم التذلل والخضوع لأولياء المقتول فيرقب رحمة الله التي رحمه بها فلم يأخذه بجنايته. [٣]

وفي التعبير بلفظ الأخوة في قوله ﴿من أخيه﴾ مظهر من مظاهر الرحمة أيضا حيث التذكير بأخوة الإسلام ترقيقاً لقلب ولي المقتول وتأليفًا بين قلبه وقلب الجاني حيث إن أخوة الإسلام لا تنقطع بالقتل . [٤]

---

[١] راجع حدائق الروح والريحان ٢ / ١٣٠.

[٢] راجع حدائق الروح والريحان ٢ / ١٣٩.

[٣] راجع نظم الدرر ٢٨/٣.

[٤] راجع روح المعاني ٤٩/٢ والتحرير والتنوير ٢ / ٥٠٦.

والمقصد من قوله ﴿ فمن عُفي لـه ﴾ الترغيب في الرضا بأخذ العوض من دم القتيل بدلاً من القصاص لتغيير ما كان أهل الجاهلية يعتبرون به من أخذ الصلح في قتل العمد ويعدونه بيعاً لدم مولاهم .

بل إن من مظاهر الرحمة هنا التعبير بالفعل المبني لما لم يسم فاعله ﴿عُفِي﴾ للإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام فإذا عفا أي عاف كان له الحق في العفو عن شيء سقط القصاص وأخذت الدية [1] . يؤكد علي ذلك التنكير في قوله ﴿شيء﴾ أي ولو قليل من العفو .

وفي الآية تقديم وتأخير حيث قدم الجار والمجرور ﴿ لـه ﴾ على نائب الفاعل ﴿شيء﴾ وذلك للاهتمام لما في تقديم المجرور على المرفوع من قصد الإيهام ثم التفسير لزيادة التقرير؛ لأنه بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة مرتقبة إلى المؤخر أنه ماذا ! فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن . [2]

وفي قوله فإتباع بالمعروف ، أفادت الباء معنى المصاحبة أي الإتباع يكون بمصاحبة المعروف والإحسان . [3]

وفي قوله ﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ أي على القاتل المطلوب بالمال " أداء " أي – تأدية المال – " مال الدية إليه " أي : إلى الولي العافي بإحسان " أي بسهولة من غير مماطلة ، بل بطيب نفس .

وبين اتباع وأداء طباق بين مصدرين وقعا عوضًا عن فعلين، والتقدير فليتبعوا اتِّباعًا وليؤدوا أداءً ، وقد عدل عن أن ينصب على المفعولية المطلقة إلى الرفع

---

[1] راجع حاشية زادة علي تفسير البيضاوي ٤٥٧/١ ط مكتبة الحقيقة – تركيا ، ونظم الدرر للبقاعي ٣ / ٢١ ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

[2] انظر بلاغة التقديم والتأخير في القرآن ٣ / ٨١٤.

[3] راجع بلاغة التقديم والتأخير في القرآن ٣ / ٨١٤.

لإفادة معنى الثبات والتحقيق الحاصل بالجملة الاسمية .

والضمير المقدر في ﴿اتباع﴾ عائد على ﴿ من عفي له ﴾ والضمير المقدر في " أداء " عائد إلى " أخيه " ، والمعنى فليرضى بما بذل له من الصلح المتيسر، وليؤدي باذل الصلح ما بذله دون مماطلة ولا نقص ، والضمير المجرور باللام والضمير المجرور بإلى عائدان على " فمن عفي له . [١]

وقوله تعالى: ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ إشارة إلى علة الحكم المذكور حيث أشار بـ " ذا " إليه " واللام " في ذلك للبعد إشارة للتعظيم وتذكيرا بالمنة والرحمة الواسعة ، يقول البقاعي: " لما وسع الله لنا بهذا الحكم نبه على علته تعظيما للمنة فقال " ذلك " أي الأمر العظيم الرفق وهو التخيير بين القصاص والعفو مجانا وعلى الدية .[٢]

والمقصود من الآية الكريمة " هو قبول العفو وإحسان الأداء والعدل عن القصاص ، تخفيف من الله على الناس ، فهو رحمة منه أي أثر رحمته ، إذن التخفيف في الحكم أثر الرحمة ، فالأخذ بالقصاص عدل والأخذ بالعفو رحمة. [٣]

وقد عطف ﴿ رحمة ﴾ على ﴿ تخفيف ﴾ لأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها فقد رحمك ، وأي رحمة أعظم من استبقاء المهجة . [٤]

ولما كانت هذه رحمة ومنة عظيمة جاء التهديد لمن أباها بقوله : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ .

---

[١] راجع التحرير والتنوير ٢ / ٥٠.

[٢] راجع نظم الدرر ٢٩/٢.

[٣] راجع التحرير والتنوير ٢ / ٥٠٦.

[٤] راجع حدائق الروح والريحان ٢ / ١٣٢.

لأن العفو يقتضي شكر الله على أن أنه شرع العفو ، وبأن سخر الولي لهذا العفو، فمن الشكر ألا يعود إلى الجناية مرة أخرى، فإن عاد فله عذاب أليم .

وقدم الخبر ﴿له ﴾ والمقصود به الذي يخالف الحكم ، وذلك للاهتمام والتأكيد على استحقاقه هذا العذاب لمخالفته الحكم ، وفي تنكير العذاب وعدم تخصيصه بإحدى الدارين إعلام ببشاعة العذاب في كليهما تغليظا عليه .

إذن : من يتأمل هذه الآية يرى تجلي رحمة الله عز وجل وشفقته على هذه الأمة حيث خفف عنها وأباح لها ما لم يكن لغيرها من الأمم ، فخيرها في {القصاص والعفو والدية} بل بالغ في هذه الرحمة حين أتاح للقاتل فرصة أخرى للحياة، لعله يتوب ويستغفر مما صدر منه ويبادر بالأعمال الصالحة التي تكفر ذنبه وجريمته ، بل فوق ذلك أمر ولي المقتول أن يقبل منه الدية بمعروف إبقاءً لروح الأخوة التي لا تنقطع بهذه الجريمة ، فلله الحمد علي رحمته الواسعة وفضله الواسع العميم .

المبحث الثاني

التحذير من القنوط من رحمة الله

إن القنوط من رحمة الله تعالى مظهر من مظاهر اليأس من رحمة الخالق الذي وسعت رحمته السماوات والأرض، وفي القرآن الكريم آيات عديدة تبين حال الإنسان في بعض المواقف وقنوطه من رحمة الله تعالى جهلا منه وظلما ، منها :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ {سورة الروم:٣٦ } وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْأَمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ {سورة فصلت: ٤٩} .

لذا خاطب الله عز وجل عباده ودعاهم إلى عدم القنوط من رحمته وأخبرهم أنه يغفر الذنوب جميعا بعفوه وقدرته ، وهذا ما سيتضح لنا خلال الآية القادمة التي سنقوم بالوقوف علي أسرارها البلاغية فإليك التفصيل :

قال تعالى :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ {سورة الزمر : ٥٣ }.

سبب نزول هذه الآية كما أخرج ابن حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة .

وأخرج الحاكم والطبراني عن ابن عمر فقال : كنا نقول ما لمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل فيهم ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ . [1]

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن بن عباس قال بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه : كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل

---

[1] انظر أسباب النزول للإمام السيوطي – دراسة وتحقيق / حامد أحمد الطاهر – الناشر : دار الفجر للتراث القاهرة / ط ١ ، ٢٠٠١ م ، ص ٣٥.

أو زنى أو أشرك يلق آثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة ؟ فانزل الله إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً .

قال وحشي : هذا شرط شديد ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ فلعلي لا أقدر على هذا ، فأنزل الله ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فقال وحشي هذا أرى بعده مشيئة فلا أدري أيغفر لي أم لا فهل غير هذا ؟ فأنزل الله ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ قال وحشي هذا نعم ، فأسلم . (١)

ونقل السيوطي أيضا عن الطبراني قوله : ما في القرآن آية أعظم فرجاً من الآية التي في سورة الزمر ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وعن أبي ذر الهروي في فضائل القرآن من طريق يحي بن يعمر ، عن بن مسعود ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إن أعظم آية في القرآن ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ { البقرة : ٢٥٥} وأرجى آية في القرآن ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إلى آخرها . (٢)

والسبب في فتح باب الرجاء بهذه الآية أن الآيات السابقة عليها أطنبت في الوعيد إطنابا يبلغ في نفوس سامعيها أي مبلغ ، وقد يبلغ بهم مبلغ اليأس والقنوط ؛ بل إنها أثارت في نفس النبي ﷺ خشية أن يحيط غضب الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا، فجاءت هذه الآية تفتح أبواب الرحمة والرجاء من جديد أمام

(١) راجع أسباب النزول للإمام السيوطي ص ٣٥٢ .

(٢) راجع الإتقان في علوم القرآن ، ص ٣١٥ – ٣١٦.

كل من أراد الرجوع والأوبة إلي الله تعالي ، وتطمينا وتفريجا عن نفس النبي ﷺ المرسل رحمة للعالمين بقوله : " قل يا عبادي الذين أسرفوا علي أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . [1]

ولذا فصلت هذه الآية عن الآيات السابقة للاستئناف البياني أو ما يسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال ، لأنها خواطر الحيرة والتساؤل التي تجيش بها النفوس ، يقول ابن عاشور : " والكلام استئناف بياني ، لأن الزواجر السابقة تثير في نفوس المواجهين بها خاطر التساؤل عن مسالك النجاة ، ... وكذا كانت تثير في نفس النبي ﷺ خشية أن يحيط غضب الله بالذين دعاهم إليه فاعرضوا .. فكان أمره لرسوله أن يناديهم بهذه الدعوة تنفيساً عليه وتفتيحًا لباب الأوبة إليه ، فهذا الكلام ينحل إلى استئنافين ، فجملة " قل " استئناف لبيان ما ترقَّبه أفضل النبيين ، أي بلغ عني القول ، وجملة " يا عبادي " استئناف ابتدائي من خطاب الله لهم".[2]

وفي ندائهم بقوله " يا عبادي "بعد " قل" المقتضية للكلام في الغيبة إلي أسلوب الخطاب المباشر منه سبحانه التفات بديع يفيض تحنناً وتعطفاً عليهم مما يهيب بذوي العقول منهم إلى المبادرة إلى الإنابة والرجوع بالتوبة ، ويفتح لهم باب الأمل والرحمة من جديد، وينشط المخاطب ويفتح مسامعه ويوقظ أعلي درجات الانتباه والوعي لما يلقى إليه ، وأصل النداء بـ " يا " أن تكون للبعيد حقيقة أو حكماً ، وقد نادهم الله سبحانه وتعالى بها نداء القريب لنكتة إظهار الحرص على إقبالهم

(1) راجع نظم الدرر ٥٣٤/٢٦ ، والتحرير والتنوير ٣٩/٢٤.

(2) التحرير والتنوير ٣٩/٢٤.

وعودتهم ، وكون الخطاب الذي يأتي بعدها معتني به. [١]

ثم زاد في التلطف والترفق بهم بذكر العبودية ونسبتهم إليه "يا عبادي" فالعبودية تقتضي التذلل وهو أنسب بحال العاصي إذا لم يتب ، ونسبتهم إليه تقتضي التشريف لهم والترحم بهم ؛ لأن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه ، ولعل في إثبات الياء في هذه الآية دون نظيرها وهو قوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ يؤكد هذا التلطف ، إذ أن الخطاب هنا للذين أسرفوا وفي مقدمتهم المشركون ، وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم، فكان إثبات ياء المتكلم زيادة في التصريح بنسبة عبوديتهم له سبحانه إيماءً إلى أن الشأن الرحمة بعباده . [٢]

يقول السيوطي : " وسمي العبد عبداً ، لأنه محل القضاء ، مسلكه العيوب ، وليس لك الفخر أيها العبد بنسبك لسيدك ، بل الفخر لك أنه إلهك ، والإله يرزق ، وإن عملت عملاً قبله منك ، وإن أذنبت ذنوباً غفرها لك . [٣]

وقوله : ﴿ الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ أي الذين أفرطوا في الجناية بالمعاصي والآثام، وأصل الإسراف " مجاوزة الحد ، وأسرف في ماله عَجِل من غير قصد، والإسراف في النفقة التبذير [٤] ولذا فهو مجاز مرسل علاقته التقييد والإطلاق ، حيث استعمل المقيد وهو الإفراط في صرف المال في المطلق وهو مجاوزة الحد

---

[١] يراجع الإتقان ، ص ٢٠٩ – ٢٠٥.

[٢] راجع حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي ٧ / ٣٤٤ ط / دار صادر بيروت ، والتحرير والتنوير ٢٤ / ٤١.

[٣] معترك الأقران ج ٢ ، ص ١٧٨ – ٣٩٨.

[٤] لسان العرب لابن منظور ١٤٨/٩ مادة (س ر ف) ط/ دار صادر بيروت.

والإفراط في المعاصي والجنايات ، ليصور مبالغة هذا العاصي وعدم مبالاته بكثرة الذنوب ، مع أن ضررها يعود عليه وحده، ولذا عُدِّي الإسراف بحرف الجر " على" وحتى يفهم أن الإسراف والتعدي على الغير لا يغفر إلا بالخروج من عهدة ذلك الغير ، وفي هذا فضل رحمة منه سبحانه بهذا المسرف حيث وجهه إلى التحلل من تبعات الغير التي لا تغفر إلا بعد التحلل منه،كذا من لطف الله ورحمته بالمسرفين أنه وجه الكلام لهم بأسلوب الغيبة فقال ﴿ أسرفوا ﴾ ولم يقل أسرفتم؛ لئلا يخجل العاصي ويفتضح ،وتستراً عليه حتى لا يهتك ستره ما لم يشرك به ، فإن رجع بعد الشرك قبله وأقبل عليه . [1]

وفي قوله : ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة والأصل:لا تقنطوا من رحمتي . وجهه أن يفهم السامع أن هذا لفظ المتكلم وقصده من السامع ، حضر أو غاب ، ومجمل فائدة الالتفات تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملل ، ولما جلبت عليه النفوس من حب التنقلات ، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد [2] وهنا لطيفة أخرى تظهر من خلال التعبير بالاسم الظاهر- وهو لفظ الجلالة – بدلا من الضمير ؛ إذ فيه إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء ، وذلك لتشمل رحمته التائب وغيره ، فكأنه أراد أن يؤكد أن هذه الرحمة هي صفة الله سبحانه وتعالى وحده ، فأضافها إلى اسمه الذي لا يوصف به أحد غيره ، وإشعاراً بأنها هي الأصل في معاملة عباده [3] .

---

[1] راجع حاشية الشهاب على البيضاوي ٧ / ٣٤٤ ، ونظم الدرر للبقاعي ٢٦ / ٥٣٣ ، ومعترك الأقران ٢ / ٣٩٨.

[2] راجع الإتقان ص ٢١٥.

[3] راجع روح المعاني ٢٤ / ١٣ ، وحدائق الروح والريحان ٢٥ / ١٠٥.

وجملة ﴿ لا تقنطوا ﴾ مستأنفة جواب للنداء و " لا " ناهية أفادت معنى الإرشاد أي إرشادهم إلى عدم القنوط من رحمة الله .

وقوله : ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ جملة تعليلية أفادت تعليل عدم القنوط من رحمة الله ،وأزالت دهشتهم ، وكأنها إجابة على سؤال دار في وجدانهم ، كيف لا نقنط من رحمته وقد أسرفنا وفعلنا كل شيء يغضبه ؟ ! فجاءهم الجواب ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، ولذا ساغ فصلها عن الجملة السابقة لما يسميه البلاغيون بشبه كمال الاتصال ، بل أوغل في طمأنتهم وإزالة الدهشة عنهم بأن أورد الجملة مؤكدة بـ إنَّ واسمية الجملة ، ووضع الاسم الظاهر – الله – بدلا من المضمر لأن للفظ الجلالة وقعًا عظيمًا في القلوب يمكن الألوهية ويشيع هيمنتها في الضمائر، وجلي أن وقوع الاسم الظاهر في غير موقعه يحدث في نفس المتلقي انتباهًا وزيادة تيقظ ، كما أن المظهر يتضمن أثارة من التفخيم والتعظيم والتأكيد ، لما فيه من وضوح الدلالة وقطع الشركة ، كما أن الاسم الظاهر يشعر بأن المغفرة من مقتضيات ذاته سبحانه لا لشيء آخر من توبة أو غيرها . [1]

كما أن " أل " في الذنوب تفيد الاستغراق ؛ لأنها في مقام التمدح فتشمل الذنوب التي تعقبها توبة وغيرها مما يدخل في مشيئته سبحانه ، يؤكد ذلك إردافه بقوله " جميعًا " ليدل علي كمال مغفرته ، ومن جملة كمالها كونها غير مشروطة بتوبة . [2]

وقوله : ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ تزييل وختم للآية بما يضمن لهم ما أخبرهم به من بداية الآية تأكيداً على سعة رحمته وعظيم مغفرته لذا جاء التذييل كله في جملة من التأكيدات الرائعة أولها: " إنَّ " واسمية الجملة ، وثانيها: القصر بتعريف

---

[1] راجع الكافي في علوم البلاغة ص ١٤٧، وروح المعاني ١٤/٢٤.

[2] راجع حاشية شيخ زادة علي تفسير البيضاوي ١٤٤/٤.

الطـرفين ، حيـث قصـر صـفة المغفـرة الرحمـة علـي الضـمير العائـد إليـه سبحانه،وثالثها: ضمير الفصل [1] ، وهو يفيد التأكيد علي التخصيص المستفاد من تعريف الطرفين، ورابعها: إيراد " الغفور " و" الرحيم " على أوزان صيغ المبالغة للدلالة علي سعة غفرانه ورحمته تعالى .

وكأن هذه التأكيدات المتلاحقة ترد علي أي هاجس يدور في نفوس المسرفين، وتقطع الطريق على أي شك يمكن أن يؤخرهم عن المبادرة بالتوبة ، أو يدفعهم إلى القنوط ، لذا جاءت مفصولة عن سابقتها لما فيها من التعليل لما قبلها ، فالفصل فيها لشبه كمال الاتصال كالجملة السابقة ، لأنها أجابت عن سؤال اقتصته جملة " لا تقنطوا من رحمة الله " .

وبعد هذا كيف يقنط العبد – المؤمن – من رحمة الله التي لا حدود لها ؟! ولماذا يقنط من رحمة الله ؟ هل لأنه لا يدرك هذه الرحمة على رغم ظهورها في كل شيء في حياته ؟! أم لقلة الإيمان أم لجحوده لهذه الرحمة والنعمة ؟! .

---

[1] ضمير الفصل : " هو ضمير منفصل مرفُوعٌ يُؤْتَى به فاصلاً بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر ، ويفيدُ تقوية الإسناد وتوكيده ، وقَدْ يفيد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال " كتاب البلاغة العربية أسسها وفنونها ص ٤٢٨ عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني / دار القلم – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

المبحث الثالث

إقباله تعالى بالرحمة والمغفرة على عباده المؤمنين

إذا كانت رحمته عز وجل وسعت جميع المسرفين علي أنفسهم وعلى رأسهم المشركون ، بل أقبل عليهم سبحانه وتلطف إليهم ووصفهم بقوله عبادي وأضافهم إلى نفسه تشريفا لهم، فلم يقنطهم من رحمته و دعاهم إلى الأوبة والإنابة ووعدهم غفران ذنوبهم ، فكيف لا يرحم من أقرُّوا له بالربوبية وأفردوه بالتوحيد والعبادة ؟!

في القرآن الكريم آيات عديدة تبين رحمة الله بعباده المؤمنين،حتى ولو صدرت منهم أعمال السوء، نتعرض لواحدة منها لنرى سعة رحمة الله بعباده ووعده بالمغفرة والرحمة لمن أقبل عليه تائباً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ {سورة الأنعام : ٥٤} .

يقول الإمام البقاعي في سبب نزول هذه الآية : " لما كان أكابر المشركين وأغنياؤهم قد وعدوا النبي ﷺ الاتباع إن طرد من تبعه ممن يأنفون من مجالستهم وزهدوه فيهم ، بيَّن له سبحانه أنه لا حظ له في طردهم ولا في اتباع أولئك بهذا الطريق ، ثم نهاه عن طردهم لما في ذلك من الضرر لغير فائدة .

ثم لما نهاه عن طردهم علَّمه كيف يلاطفهم فقال – عاطفا على ما تقديره – وإذا جاءك الذين يحتقرون الضعفاء من عبادي فلا تحفل بهم ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم " . [1]

قال عكرمة نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم ، وكان ﷺ إذا جاءهم

[1] راجع نظم الدر ٧ / ١٣٠.

بدأهم بالسلام وقال { الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام . (١)

قوله :﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ " إذا " لظرف المستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب قل " وجاء " وهي تستعمل فيما هو مؤكد من الأفعال بخلاف " إن " دلالة علي تأكد مجيئهم عند النبي ﷺ وكثرة ترددهم على مجالسه ،و"الذين " اسم موصول في محل رفع فاعل و" يؤمنون " فعل مضارع ، " بآياتنا " جار ومجرور والمقصود منها : أي الذين يصدقون بحجتنا وبرهيننا " فقل سلام عليكم " الفاء " رابطة لجواب الشرط " قل " والفاعل " أنت " ويقصد الرسول ﷺ .

وتلحظ أن الكلام مصدر بحرف العطف " الواو " ليُعطف علي الكلام السابق وهو قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ وقد وصل هنا لما بينهما من تناسب في المعني ، فهو تكريم لهم بعد النهي عن طردهم ، كما تلحظ هنا أنه أظهر في موضع الإضمار وهذا خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، حيث يقتضي السياق أن يقول:"وإذا جاءوك" ، لكنه جاء بالمسند إليه معرفاً بالموصولية حتى يمكن وصفهم بهذه الصفة الموجبة لإكرامهم – الذين يؤمنون – وصفا ملازمًا لهم؛ وذلك لأن اسم الموصول في رتبة المعرف بـ أل العهدية (٢) ، وقد يكون التعريف بالموصولية مقصودًا منه الجنس المفيد للاستغراق ليعم غيرهم ويشمل كل من اتصف بهذه الصفة ، وللإيغال في مدحهم بهذه الصفة

(١) راجع تفسير الحداد – كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل – لأبي بكر الحداد التميمي ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم يحيى، دار المدار الإسلامي ، ج ٣ ، ص ٣٦.

(٢) راجع مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٣٠٢/١ ط/ دار الكتب العلمية / بيروت.

جاء التعبير بصيغة المضارع التي تدل على الاستمرارية والمداومة ، وأنها صفة متجددة فيهم بتجدد أنفاسهم في طاعة الله ورسوله ، بل بالغ في مدحهم أكثر حين أشار إلي مظهر العظمة بأنهم آمنوا بما هو جدير بالإيمان به فقال ﴿يؤمنون بآياتنا﴾ . [1]

وبعد مدحهم بهذا الوصف المشرِّف لهم جاء التكريم لهم في صورة جواب الشرط المربوط بفاء الجزاء فقال: ﴿ فقل سلام عليكم ﴾ أي قل لهم سلام مني ومن الله عليكم إكراما لهم وتطييباً لخواطرهم .

والسلام في اللغة له معانٍ، منها : " سلام " ، مصدر سلمت ، "والسلام" اسم من أسماء الله وتأويله – والله اعلم – ذو السلام الذي هو تخليص من المكروه ، والتحية السلام ، لسلامته من الآفات ، والصلح يسمى السلم ، وسمي بهذا لأن معناه السلامة من الشر " [2] ، وسلام عليكم الأصل فيها أنها دعاء وغرض الداعي أن تشملهم السلامة وتحيط بهم من جميع جوانبهم . [3]

والتحية بالسلام لها صيغتان " سلام عليكم " بالتنكير ، و " السلام عليكم " بـ " إل التعريفية " التي تفيد التفخيم والتعظيم ، واختير هنا التنكير لما يلحقهم في الدنيا

---

[1] راجع نظم الدرر ٧ / ١٣٠.

[2] راجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج / تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي – خرج أحاديثه الأستاذ جمال الدين محمد – ط / دار الحديث ٢ / ٢٠٣ – ٢٠٤، ولسان العرب ١٢ / ٢٨٩.

[3] كتاب الكليات – لأبى البقاء الكفومى ١ / ٩٩٤م – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري .

من مصائب . [١]

وقيل : معناه حيِّهم بتحية الإسلام ، وقد أكرمهم الله كرامتين ، الأولى أن يبدأهم النبي ﷺ حين دخولهم عليه بالسلام وهي ميزة لهم ، لأن شأن السلام أن يبدأ به الداخل ، فنزل هو منزلة القادم عليهم ، لأنه زف إليهم هذه البشرى والكرامة التي هي بشراهم برضا الله عنهم ، ورحمته إياهم بأنه غفر لهم ما يعملون من سوء إذ تابوا هم بعده وأصلحوا ، وهذا الخبر إن كان يعم المسلمين كلهم فلعله لم يكن معلوماً فكانت البشارة به في وجوه المؤمنين يومئذ تكرمة لهم ليكونوا ميموني النقيبة على بقية إخوانهم والذين يجيئون من بعدهم . [٢]

وقوله : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ كتب فعل ماض أفاد التحقيق والحصول ، ربكم : فاعل وكم مضاف إليه ، على نفسه ، جار ومجرور ومضاف إليه ، والرحمة مفعول به لـ " كتب " .

ومعنى " كتب " تقول : كتب كذا على فلان يفيد الإيجاب و (على) أيضاً تفيد الإيجاب ومجموعهما مبالغة في الإيجاب، فهذا يقتضي كونه سبحانه راحماً لعباده رحيماً بهم على سبيل الوجوب ،أي أوجب ذلك إيجاباً مؤكدًا ، تفضلاً منه وتكرماً، وإنما خوطب الخلق بما يعقلون، فهم يعقلون أن توكيد الشيء المهم إنما يكون بالكتابة ، فهم إذا أرادوا تأكيد وعد أو عهد كتبوه ، والرحمة هنا مصدر ، أي كتب على نفسه أن يرحم . [٣]

---

[١] راجع غريب الحديث للخطابي البستي ط / جامعة أم القرى – مكة المكرمة ٦٩٤/١ تحقيق : عبد الكريم العزباوي .

[٢] راجع التحرير والتنوير ٧ / ٢٥٧.

[٣] راجع مفاتيح الغيب للإمام العالم العلامة محمد بن عمر الرازي الشافعي ١٣ / ٤ ط / دار الكتب العلمية – والتحرير والتنوير ٧ / ص ١٣٠– ١٣١ .

واستعيرت " الكتابة " للوجوب بجامع الإثبات والإلزام في الكل وحذف المشبه واشتق من الكتابة " كتب " وتنوسى التشبيه وادعي أن المشبه فرد من أفراد المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحيه التبعية .

وفي قوله ﴿ كتب ربكم ﴾ أسند الكتابة إلى ربهم، أي كتب الناظر لكم في مصالحكم والذي يربيكم ويملككم الرحمة فهذا تبشير بعموم الرحمة ، وتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهاراً للُّطف بهم وإشعارًا بعلة الحكم ؛ لأن كلمة الرب تعني المالك والمدبر، فهو مالك أمرهم ومدبر ما يصلح حالهم ، والإضافة تشعر بحاجتهم وافتقارهم إليه، فلا رب لهم سواه . [1]

وفي قوله ﴿على نفسه الرحمة ﴾ قدم الجار والمجرور " على نفسه " على المفعول " رحمة " اهتمامًا بتقرير ما أوجبه على نفسه – سبحانه – وتوكيده[2] واللام في " الرحمة " لام تعريف الجنس تفيد الاستغراق ، لتستغرق جميع أشكال الرحمة وألوانها .

وقوله تعالى : ﴿ أنه من عمل منكم سوءً بجهالة ﴾ بالفتح وهي قراءة نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، ويعقوب على أنه بدل من الرحمة بدل اشتمال ، لأن الرحمة العامة تشتمل على غفران ذنب من عمل ذنب ثم تاب وأصلح ، فيكون الفصل فيها لكمال الاتصال وقراءة الباقين بكسر الهمزة على أن يكون استئنافاً بيانيا . " أي شبه كمال الاتصال ، فكأن الرحمة استفسرت فقيل : ما هي؟ فقيل: "إنه من عمل..." . [3]

---

[1] راجع روح المعاني ١٦٤/٧،البحر المحيط ١١٣/٤ والفروق اللغوية لابن سهل العسكري ص ٢٤٧ ط/ دار الكتب العلمية.

[2] انظر بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم / ج ٣ / ص ٨٢٢.

[3] راجع تفسير الكشاف ٢ / ٣٥٣ ط مكتبة العبيكان تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين،

والباء في قوله : ﴿ بجهالة ﴾ للملابسة ، أي ملتبسًا بجهالة والمجرور في موضع الحال من ضمير " عمل " والجهالة تطلق على انتفاء العلم بشيء ما، والمؤمن لا يأتي السيئات إلا إذا غلب هواه رشده ، أي عمل سوءاً عن حماقة من نفسه ، وهذا الوجه المناسب لتحقيق معنى الرحمة ، والتقييد بذلك للإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر . [1]

وفي قوله : ﴿ ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴾ تجد أن " ثم " قد أفادت التقرير، أي تقرير وقوع التوبة ، والضمير في قوله " من بعده " عائد إلى " سواء " أي بعد عمل السوء ،ومعنى "أصلح " صير نفسه صالحة أو أصلح عمله بعد أن أساء وهي معطوفة على تاب حيث أفادت الواو التشريك في الحكم بين " تاب " و " أصلح " .

وفي قوله : ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ :المصدر المؤول " أنه غفور " في محل رفع مبتدأ خبره محذوف أي غفرانه حاصل ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي شأنه الغفران ، أو الجملة من اسم أن وخبرها صلة الموصول الحرفي " أن " [2] ففيها إيجاز بالحذف .

وقراءة نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف بكسر همزة " فإنه غفور رحيم " على أن الجملة مؤكدة بـ " إنَّ " ، فيعلم أن المراد أن الله قد غفر لمن تاب ؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة وقرءاة بن عامر،

وحاشية الشهاب علي البيضاوي ٤/ ٧٠ .

[1] انظر التحرير والتنوير ٧ /١٣٠ ، ١٣١، وتفسير أبي السعود ٣/ ١٤١.

[2] انظر إعراب القرآن الكريم / للأستاذ الدكتور : محمد الطيب إبراهيم ص ٢٢٥ / طباعة: دار النفاس بيروت – لبنان / الطبعة الثالثة ٢٠٠٦ .

وعاصم ، ويعقوب " فأنه" بفتح الهمزة على أنها " أن " المفتوحة أخت " إن " فيكون ما بعدها مؤولاً بمصدر. والتقدير " فغفرانه ورحمته " وهذا جزء جملة يلزمه تقدير خبر ، أي له ، أي ثابت لمن عمل سوءاً ثم تاب . (١)

وفي قوله ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ تقديم غفور على رحيم وذلك لسبق في الحدوث ، لأنه لا يمكن أن يُرحم أحد دون أن يُغفر له ، فإن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة ، فالتقديم جاء على ما يطلبه البشر وما يسود من منطقهم . (٢)

وفي قوله ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ كناية عن المغفرة لهذا التائب المصلح وهي كناية عن صفة من قبيل التعريض. وجملة ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ جواب الشرط أي هو شديد المغفرة والرحمة ، فكانت جوابا وجزاء لهذه التوبة ، ولأنه في قوله "من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح " شرط لرحمة الله فكانت جملة " فأنه غفور رحيم " .

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل، تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده تفضله – سبحانه – بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة،مكتوبة عليه ، كتبها هو على نفسه، وجعلها عهدا منه لعباده بمحض إرادته ومطلق مشيئته، وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها.

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه - سبحانه - على نفسه من رحمته، فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول ، فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه

(١) انظر التحرير والتنوير / ج ٧ / ص ١٣١.

(٢) راجع التقديم والتأخير ج ١ ص ١٩١– ١٩٢.

يحملها إليهم رسوله ؟ من هم ؟! إلا أنه الفضل العميم الفائض من خلق الله الكريم، إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ، كما يدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه ! ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاعر ؛ ليس موكولا إلى التعبير البشري ليبلغ شيئا في تصويره ؛ وإن كان القلب البشري مهيأ لتذوقه ، لا لتعريفه والذي يترع القلب بحلاوة مذاقه كما يروعه بجلال إيقاعه ، ورحمة الله تفيض على عباده جميعا ؛ وتسعهم جميعا ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم ، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود لحظات الحياة للكائنات.[1]

[1] في ظلال القرآن لـ سيد قطب ٦/٦٥ ط منبر التوحيد والجهاد.

المبحث الأول

رحمة الله بعباده بإنزال القرآن إليهم

إن في إنزال القرآن الكريم رحمة بالبشر ، فقد سبقه كتب سماوية لكنها حرفت وبدلت ، ولكن من رحمة الله بعباده أن أنزل القرآن الكريم وتكفل بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ﴾ وجعله سببًا لهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وطريقاً إلى رحمة الله في الدنيا بصلاح الحال وفي الآخرة بالفوز بالجنة ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {سورة الأعراف : ٥٢} .

وسوف أتحدث عن بلاغة الرحمة في إنزال القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ {سورة الأعراف : ٢٠٣} .

رُوى أنّ الوحي كان يتأخر عن النبي صلى الله عليه وسلّم أحياناً فكان الكفار يقولون : هلا اجتبيتها؟ أي تخيرتها واصطفيتها ، أو هلا اخترعتها واختلقتها من قبلك ومن عند نفسك ؟ ، والمعنى أنّ كلامك كله كذلك ، على ما كانت قريش تدعيه كما قالوا ما هذا إلا إفك مفتري ، .. وهذا القول منهم من نتائج الإمداد في الغيّ كانوا يطلبون آيات معينة على سبيل التعنّت ، كقلب الصفا ذهبًا وإحياء الموتى، وتفجير الأنهار ، وكم جاءتهم من آية فكذبوا بها واقترحوا غيرها ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ بيّن أنه ليس مجيء الآيات إلي، إنما أنا متبع ما أوحاه الله تعالى إليّ ولست بمفتعلها ولا مقترحها، { هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ } أي هذا الموحى إليّ الذي أنا أتبعه لا أبتدعه وهو القرآن بصائر، أي حجج وبينات يبصر بها وتتضح الأشياء الخفيّات ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي دلالة إلى الرّشد ورحمة

في الدارين وفي الدين والدنيا ، وخصّ المؤمنين لأنهم الذين يستبصرون وهم الذين ينتفعون بالوحي يتبعون ما أمر به فيه ويجتنبون ما ينهون عنه فيه ويؤمنون بما تضمنه .

والناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد ثلاثة أقسام ، أحدها : الذين بالغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين لها وهم أصحاب عين اليقين فالقرآن في حقهم بصائر ، والثاني : الذين وصلوا إلى درجات المستدلين وهم أصحاب علم اليقين فهو في حقهم هدى ، والثالث : من اعتقد ذلك الاعتقاد الجزم وإنْ لم يبلغ مرتبة المستدلّين وهم عامة المؤمنين فهو في حقهم رحمة ، ولما كانت هذه الفرق الثلاث من المؤمنين قال لقوم يؤمنون . [1]

فقوله : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ معطوف علي قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ في معرض الحديث عن إغواء الشياطين لإخوانهم الجاهلين من المشركين، فقال عاطفاً أن من جملة إغواء الشياطين لهم أنهم يطلبون منك اختلاق الآيات من عند نفسك، تهكمًا منهم وتعريضًا بأن كل ما تقوله هو اختلاق وافتراء من عند نفسك لا بوحي من الله،والسبب في الوصل هو وجود المناسبة والجهة الجامعة للكلامين واتحاد الجملتين في الخبرية لفظاً ومعني، من باب ما يسميه البلاغيون الوصل للتوسط بين الكمالين ، و " إذا " ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط و " لم " للنفي والجزم والقلب حيث تقلب أو تنقل معنى الفعل المضارع الذي بعدها من الحال والاستقبال وتخلصه إلى الاستقبال فقط .

ومعنى الآية أي إذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا " قالوا لولا اجتبيتها " أي هلا اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك " وهو تهكم منهم

[1] البحر المحيط ٤/ ٤٣٧.

لعنهم الله. [1]

وإمعانًا منهم في قصد اختلاق الآية التي يطلبونها تهكمًا وتعجيزًا يستخدمون صيغة الافتعال التي تدل علي الجِد والاجتهاد والتكلف والتخير عند طلب الشيء ، فقولك اجتبى الشيء فيه طلب مشقة أكثر من قولك جباه ، فكما يقول أهل اللغة زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى .

يقول البقاعي : " الاجتباء الجِد في الجمع ويلزم منه الاصطفاء والاختيار، فمعني اجتبيتها أي تكلفت من عند نفسك الإتيان بها مختارة" [2] و" لولا " في الآية بمعنى " هلا " فهي للتحضيض .

وبعد هذا التعنت في السؤال يأتي الجواب بتوجيه من الله مؤكداً ومفحماً لهم فقال: ﴿ قل أنما أتبع ما يوحى إلى من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ فـ " قل " فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، يقصد به النبي ﷺ ، وإنما لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه ، وذلك لأن "إنما" تتضمن الإثبات والنفي مثل " ما وإلا " فالجملة مع " إنما " لها دلالتان : دلالة الإثبات وهو لما يذكر بعدها ودلالة النفي وهو لما سوى المذكور .

فمطابقة الجواب لهم تستدعي القصر والحصر بطريق " إنما " ليكون الجواب نفي أنه يختلق الآيات أو يستطيع ذلك ، وإثبات كون حاله محصورا في اتباع ما يوحى إليه في آن واحد،على نحو ما أشار إليه السبكي من أن إنما تأتي في معانٍ لا تتحقق إلا بالقصر ومثل لذلك بقوله تعالى – في الرد على قول قوم نوح – ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّدِقِينَ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وقوله:﴿يَسْـَٔلُونَكَ

---

[1] انظر صفوة التفاسير / ج ١ / ص ٤٨٩ .

[2] نظم الدرر ٢٠/٨.

عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت "إنما" للقصر ليكون معناه لا آتيكم به إنما يأتي به الله، ولا أعلمها إنما يعلمها الله . (١)

فبلاغة إنما لا يكمن في إفادتها للقصر ، بل يكمن في "تصرفها في الأسلوب ، وكيف رمي بها الكلام الفصيح في مرمى لا يصلح إلا بالقصر" . (٢)

فمعني الآية التي معنا لا يصلح إلا بالقصر ، فلو حذفت " إنما " فقال : " أتبع ما يوحى إليّ من ربكم" لأوهم أنه يملك الاختلاق والاجتباء لكنه لا يفعل ذلك .

ولذا يقول الآلوسي : " قل إنما أتبع ما يوحى إليّ" على معنى تخصيص حاله عليه السلام باتِّباع ما يوحى إليه بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذي كلفوه إياه ، .. كأنه قيل : ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي منه سبحانه دون الاختلاق والاقتراح " . (٣)

والجار والمجرور في " من ربي متعلق بـ " محذوف " حال من نائب الفاعل، وفيه تعرض لعنوان الربوبية ، وإضافته إلى الضمير العائد إليه تقوي بالركن الذي لا يضام وفيه إشارة إلى اعتماده الكلي وثقته البالغة في ربه ومولاه .

وفي قوله ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ " هذا " الهاء للتنبيه ، و " ذا " اسم إشارة ، يشير إلى القرآن الكريم ، ومجيء المسند إليه في صورة اسم الإشارة يوحي بالتعظيم والتبجيل لشأن هذا القرآن ، وقوله " بصائر " إما أن تكون من باب التشبيه البليغ المحذوف فيه أداة التشبيه ووجه الشبه ، أي هذا القرآن الجليل حجج بينة ، وبراهين نيره ، تغني عن غيره من المعجزات ، فهو كالبصائر أو بمنزلة

---

(١) راجع عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص ١٩٣/٢ دار الكتب العلمية.

(٢) دلالات التراكيب د محمد أبو موسى ص ١٤٣ ط / مكتبة وهبة الطبعة الثانية.

(٣) روح المعاني ٩ / ١٤٩.

البصائر للقلوب به ، يبصر الحق ويدرك .

وإما أن تكون علي سبيل المجاز المرسل بعلاقة المسببية حيث أطلق المسبب وأراد السبب ، فالقرآن سبب في تفتيح البصائر التي تدرك الحق وتهتدي بالنور .

وقد تكون على سبيل الاستعارة التصريحية ، حيث شبه الإرشاد والتوجيه من القرآن بالبصائر بجامع الاهتداء في كلٍ ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية .

ومهما يكن من هذه الألوان الثلاثة في كلمة " بصائر " فكلاها يوحي بعظم قدر هذا القرآن وبيان فضله في هداية المستفيدين من نوره إلى الطريق المستقيم .

وقد وردت "بصائر بصيغة الجمع لأن في القرآن أنواعاً من الهدى حسب النواحي التي يهدي بها من تنوير العقل وتسديد الفهم ، وإصلاح الاعتقاد ، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين الناس،أو من حيث هو سور وآيات.[1]

وقوله ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لم ينقطع إحسانه عنكم ،فيه تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى الضمير العائد إليهم إشارة إلى أنه جدير بأن يتلقى ما أتى منه بكل جميل ، وفيه تأكيد علي وجوب الإيمان بكل ما أنزل . [2]

وقوله : ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ معطوف على قوله : ﴿ هذا بصائر ﴾وقد أفرد الهدى والرحمة لأنهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر، والمراد بالرحمة ما يشمل الرحمة في الدنيا باستقامة الأحوال ، وفي الآخرة بالفوز بالنعيم المقيم ، " والتنوين فيهما يفيد التفخيم ، وفي تقديم الجار والمجرور " من ربكم " عليهما وتعقيبهما بقوله : " لقوم يؤمنون " إيذان بأن كون القرآن بصائر متحقق بالنسبة إلى الكل ، وبه تقوم الحجة على الجميع ، أما كونه هدى ورحمة

---

[1] راجع المحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ٤٩٣، التحرير و التنوير ٢٣٨/٩.

[2] راجع نظم الدرر للبقاعي ١٠٨/٨، روح المعاني ١٤٩/٩.

فمختص بالمؤمنين ؛ إذ هم المقتبسون من أنواره ، والمقتطفون من نواره " . [1]

أما عن فصل قوله : ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ عن قوله : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي " إما لكونه من تمام القول المأمور أن يجيبهم به فيكون الخطاب للمشركين ، كأنه قيل وأي شيء تجتبيه ؟ فقال : ﴿ هذا بصائر من ربكم﴾ فيكون الفصل لشبه كمال الاتصال ، وإما مستأنفة لابتداء كلام فيه تنويه بشأن القرآن منقطعة عن المقول للانتقال من عرض إلى عرض بمنزلة التذييل بمجموع أغراض السورة ، والخطاب للمسلمين . [2]

والقرآن الكريم كله نور على نور ، ولولا القرآن وكلماته وآياته ولولا نزوله على محمد ﷺ لما هدينا إلى صراط الله المستقيم، وهذه رحمة من الله بعباده لا تضاهيها رحمة في الأرض ، فلله الحمد والمنة .

---

[1] روح المعاني ١٤٩/٩ وقد نسب الآلوسي هذا الكلام لشيخ الإسلام.

[2] راجع التحرير والتنوير ٩/ ٢٣٨.

المبحث الثاني

رحمة الله بعباده بجعل رسوله مفطوراً على اللين والمرحمة

زين الله محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان إيجاده رحمة ، وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق ، وهذا يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم فُطر على خُلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة ، وهذا ما سوف يتضح من خلال قوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ {سورة : آل عمران : ١٥٩} .

الآية التي معنا من الآيات التي نزلت في غزوة أحد، والتي تتكلم عن مخالفة بعض الصحابة لأوامر النبي ﷺ وتركهم لمواقعهم ، فعاتبهم الله بقوله:﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ وكان مقتضى هذه المخالفة أن يعنفهم النبي ﷺ ويغلظ لهم في القول، لكنه صلى الله عليه وسلم الموصوف بالرحمة ألان لهم الكلام تحقيقًا لرحمته وعفوه،لذا جاء الثناء من الله تعالى عليه في هذه الآية تذكيرًا للمؤمنين بفضل الله عليهم وكرمه فقال (فبما رحمة من الله لنت لهم ..) .

وأول ما يقع عليه خاطرك من البلاغة في هذه الآية هو الالتفات والتلوين في الخطاب؛ إذ كان مقتضى الحال أن يكون الكلام على صيغة الخطاب للمؤمنين كما هو سياق الآيات السابقة وما تقتضيه الفاء من التفريع على الكلام السابق فيقال : (فبما رحمة من الله لان لكم ..) ، لكنه عدل إلى صيغة الخطاب مع النبي ﷺ وهو التفات بديع يحوي لطائف منها :

* التلوين في الخطاب تنشيط للسامع وإيقاظ له ، يجعله في أحسن حالات الإدراك

والوعي ، وهذه فائدة عامة في الالتفات البلاغي.

*ومنها: الثناء والتكريم للنبي ﷺ بما وهبه الله عز وجل من اللين والرحمة وأنها محض فضل من الله تعالى .

* ومنها : إظهار الإعراض عن هؤلاء المخالفين لأمر الرسول ﷺ لبيان استحقاقهم للوم والتوبيخ على ما صدر منهم ، وأنهم قد يستحقون العقاب.

يقول ابن عطية : " ومعنى الآية : التقريع لجميع من أخل يوم أحد بمركزه، أي كانوا يستحقون الملام منك ، وأن لا تلين لهم ، ولكن رحم الله جميعكم ، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم ، وبعثك لتتمم محاسن الأخلاق ، وهم بأن لينك لهم وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم" . [1]

والباء في قوله : " فبما رحمة.. " متعلقة بـ لنت والتقدير لنت لهم برحمة من الله ، وتقديم المجرور مفيد للحصر الإضافي ، أي : برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم ، وهذا القصر مفيد التعريض بأنّ أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم ، ولكن الله ألاَن خلق رسوله رحمة بهم ، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمَّة .

وزيدت (ما) بعد باء الجرّ لتأكيد الجملة بما فيه من القصر ، فتعيّنَ بزيادتها كون التَّقديم للحصر ، لا لمجرد الاهتمام . [2]

وزاد ابن القيم بديعة أخري فقال أنها نافية واستفيد منها معني النفي والاستثناء الدال على القصر ، فالمعني عنده " ما لنت لهم إلا برحمة من الله ، ولذا يقول : " فإن قيل: فمن أين لكم إفادت " ما " هذه المعنيين المذكورين من النفي والإيجاب وهي لو كانت على حقيقتها من النفي الصريح لم تفد إلا معنى واحدا وهو النفي فإذا لم يكن النفي صريحا فيها كيف تفيد معنيين ؟ قيل: نحن لم ندع أنها أفادت

---

[1] المحرر الوجيز ٥٣٣/١.

[2] التحرير والتنوير ٤/ ١٤٤.

النفي والإيجاب بمجردها ولكن حصل ذلك منها ومن القرائن المحتفة بها في الكلام ، أما قولهم شر ما جاء بها فلما انتظمت مع الاسم النكرة والنكرة لا يبتدأ بها فلما قصد إلى تقديمها علم أن فائدة الخبر مخصوصة بها وأكد ذلك التخصيص بـ ما فانتفى الأمر عن غير هذا الاسم المبتدأ ولم يكن إلا له حتى صار المخاطب يفهم من هذا ما يفهم من قوله : " ما جاء به إلا شر " ، واستغنوا هنا بـ " ما " هذه عن ما النافية وبالابتداء بالنكرة عن إلا ، وأما قولك إنما زيد قائم فقد انتظمت بـ إن، وامتزجت معها وصارتا كلمة واحدة وأن تعطى الإيجاب الذي تعطيه إلا وما تعطي النفي ولذلك جاز " إنما يقوم أنا "ولا تكون " أنا " فاعله إلا إذا فصلت من الفعل بـ إلا ، تقول: ما يقوم إلا ، ولا تقول يقوم أنا ، فإذا قلت: إنما قام أنا صرت كأنك لفظت ما مع إلا قال : أدافع عن أعراض قومي وإنما ... يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلي . [1]

فإذا عرفت أن زيادتها مع أن واتصالها بها اقتضى هذا النفي والإيجاب فانقل هذا المعنى إلى اتصالها بحرف الجر من قوله : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ} و{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} وتأمل كيف تجد الفرق بين هذا التركيب وبين أن يقال فبرحمة من الله وفبنقضهم ميثاقهم وإنك تفهم من تركيب الآية ما لنت لهم إلا برحمة من الله وما لعناهم إلا بنقضهم ميثاقهم وكذلك قوله: ﴿ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ دلت على النفي بلفظها ، وعلى الإيجاب بتقديم ما حقه التأخير من المعمول وارتباط ما به مع تقديم " . [2]

فالمفهوم من كلام ابن القيم أن "ما" ليست زائدة إنما هي نافية أفادت القصر والحصر بمعونة القرائن والسياق، فقد قاسها علي إنما في إفادتها للقصر، لكن ليس معنى هذا أنها قاعدة مطردة كما هو الحال في إنما ، فليس اتصال " ما " بحرف

---

(١) البيت للفرزدق في ديوانه ص٥٤٦ من قصيدة يهجو بها جريرا.

(٢) بدائع الفوائد٢/ ٦٢٧،٦٢٨ ط / دار عالم الفوائد،ومطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

الجر " الباء " يفيد ما تفيده إنما من دلالة على القصر، ولكن هو إيحاء بدلالة القصر فهم في الآية بمعونة السياق والقرائن التي تشير إلى هذا المعنى، ولعل ما يجعل رأيه يحظى بالقبول – من جهة نظري – هو اتفاق العلماء علي دلالة الجملة على القصر، غاية الأمر أنه خالفهم في طريقة القصر، فهو علي أن القصر استفيد من ما النافية وإلا المفهومة من السياق ، وغيره على أن طريق القصر هو التقديم ،وما زيدت للتأكيد علي هذا القصر .

وقد اختلف العلماء في حكم الحرف الزائد في القرآن الكريم فمنهم من منع ذلك وفسر وجود هذا الحرف علي سبب يخرجه من الزيادة ، كما في هذا الموضع ،فقد قال بعضهم كما عند أبي السعود والآلوسي وغيرهما أنها استفهامية تفيد التعجيب والتقدير: فبأي رحمة لنت لهم ؟! ولم يعجب هذا القول بعضهم فرد عليه.

ومنهم من قال بالزيادة وفسر هذه الزيادة على أنها للتأكيد والاهتمام وغيرها. ولذلك نقول :

إن المسألة متعلقة بالاختلاف الاصطلاحي؛ فالقدماء يعبرون بـ (الزيادة) و(الحشو) و(الصلة) ونحو ذلك ، ولكنهم لا يقصدون أن هذا اللفظ دخوله كخروجه ، أو أنه زيد لغير معنى ، وإنما يقصدون أنه لو حذف من السياق لم يكن الكلام ملحونًا.

وكان للنحويين النصيبُ الأكبر من الكلام في هذا الباب ، ولكنهم قصروا كلامهم في الأعم الأغلب على الوظيفة النحوية وصحة التركيب ، ولم يتعرضوا للوظيفة البلاغية إلا نادرًا ، ومع أن أكثر النحويين يوجد في كلامهم التعبيرُ بالزيادة في القرآن وكلام العرب ، إلا أن مرادهم بذلك أنها زيدت لضرب من التأكيد ، ويعبرون بالصلة لأنها يتوصل بها إلى زنة أو إعراب لم يكن عند حذفها، أو لتزيين اللفظ واستقامته . [1]

---

[1] راجع المسألة في كتب النحو كـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين = =والكوفيين لأبي لبركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري ط/ دار الفكر ٢ /٦٣٧

أما البلاغيون فيجمعون علي أنه لا توجد زيادة في الكلام البليغ بدون فائدة – بمعنى أن يكون خروجها كدخولها – ، فإذا كان الأمر كذلك في الكلام البليغ فهي في القرآن أولى ، وتختلف وجهات نظرهم في تحديد اللطائف وراء هذه الزيادة.[١]

فكثير من المفسرين المهتمين بالبلاغة يفسرون زيادة ما هنا على أنها زيدت لتأكيد القصر المستفاد من التقديم [٢] ، ومنهم من قال أنها نافية لكن جرد عنها معنى النفي ودخلت للتأكيد فهي ليست بزائدة.[٣]

وهناك لطائف أخرى أشار إليها العلماء كما عند ابن الأثير مثلا إذ يقول :

" وإنما جاءت لفظة (ما) ههنا تفخيما لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لأمره ، ولو أسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة والجزالة ، ولا يعرف ذلك إلا أهله من علماء الفصاحة والبلاغة ... ومن ذهب إلى أن في القرآن لفظا زائدا لا معنى له، فإما أن يكون جاهلا بهذا القول ، وإما أن يكون متسمحا في دينه واعتقاده" . [٤]

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١ / ٣٢٩ لابن هشام الأنصاري ط / دار الفكر، والأصول في النحو لابن السراج ١ / ٤٠١ ط / مؤسسة الرسالة .

[١] راجع لمفصل في صنعة الإعراب لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ص ٤٢٤ ط / دار الهلال – بيروت الطبعة الأولى ، ١٩٩٣تحقيق : د . علي أبو ملحم ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٥٦ ط/ دار الفكر بيروت ، وأسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٢١ والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٧٣/٣ ط/ دار المعرفة – بيروت، ١٣٩١تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

[٢] راجع الكشاف للزمخشري ١ / ٦٤٧ ، وحاشية زادة علي البيضاوي ٨٣/٣ ، روح المعاني ١٠٥/٤.

[٣] راجع المحرر الوجيز لابن عطية ١ / ٥٣٣.

[٤] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ١ / ٣٥٨ ط/ المكتبة

ولك أن تتدبر هذه اللطيفة التي أضافها الرافعي حين قال:"ثم الكلمات التي يظن أنها زائدة في القرآن كما يقول النحاة ، فإن فيه من ذلك أحرفا : كقوله تعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ وقوله ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فإن النحاة يقولون إن (ما) في الآية الأولى و(أن) في الثانية زائدتان ، أي في الإعراب ، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم ويقيس عليه ، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه وإن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد في (ما) وصفًا لفظيًا يؤكد معنى اللين ويفخمه ، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى" .[1]

وزاد ابن سنان الخفاجي فقال:"فأما زيادة (ما) في قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } وقوله تعالى : { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} فإن لها هنا تأثيرًا في حسن النظم وتمكينًا للكلام في النفس ، وبعدًا به عن الألفاظ المبتذلة ، فعلى هذا لا يكون حشوًا لا يفيد ..." .[2]

وعلى ذلك يمكن أن نلخص القول بأن القرآن الكريم منزه عن أي زائد أو حشو لا فائدة من ورائه ، فإذا جاء ما يفسره النحويون بالزيادة الاصطلاحية فلابد أن يكون وراء ذلك سر بلاغي ، يحاول العلماء استجلاءه كما رأينا في هذا الموضع .

العصرية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

[1] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص ٢٣١ ، ٢٣٢، ط /دار الكتاب العربي بيروت.

[2] سر الفصاحة لابن سنان ص ١٥٦، ١٥٧ ط/ دار الكتب العلمية.

والتنوين في قوله: ﴿فبما رحمةٍ من الله" للتفخيم ومِن متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمة ، أي فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى ، وهي ربطه على جأشك وتخصيصه لك بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف . [١]

وقيل : متعلق الرحمة المخاطب وهو ﷺ، أي برحمة الله إياك جعلك لين الجانب موطأ الأكناف ، فرحمتهم ولنت لهم ، ولم تؤاخذهم بالعصيان والفرار وإفرادك للأعداء ، ويكون ذلك امتناناً على رسول الله ﷺ .[٢]

وفي قوله : ﴿لنت لهم اللين﴾: ضد الخشونة ، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخلق وغيره من المعاني ، فيقال: فلان لين ، وفلان خشن ، وكل واحد منهما يمدح به طورا ، ويذم به طورا بحسب اختلاف المواقع [٣] وعلى ذلك يكون قوله : " لنت لهم " استعارة تصريحية تبعية ؛ حيث شبه سعة الخلق وإقالة العثرات باللين الحسي الموجود في الأجسام بجامع عدم القسوة في كلٍ ، ثم حذف المشبه واستعير اللين له ، ثم اشتق من اللين الفعل لان وهذا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

واستخدام الفعل الماضي ﴿ لنت ﴾ فيه دلالة على أن هذا الوصف ثابت ومتقرر في حق المصطفى ﷺ مفطور عليه في أصل الخلقة .

ثم لما بين سبحانه وتعالى سبب هذا اللين المتين بين ثمرته ببيان ما في ضده من الضرر فقال : ﴿ولو كنت فظّاً﴾ أي سيئ الخلق جافياً في القول ﴿غليظ القلب﴾ أي قاسية لا تتأثر بشيء ، تعاملهم بالعنف والجفاء ﴿لانفضّوا﴾ أي تفرقوا

---

[١] راجع روح المعاني للآلوسي ١٥٠/٤، فتح القدير للشوكاني ٥٩٣/١.

[٢] البحر المحيط لأبي حيان ١٠٣/٣.

[٣] مفردات ألفاظ القرآن للحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم ٢ / ٣٥٤ ط / دار القلم – دمشق.

تفرقاً قبيحاً لا اجتماع معه [١] وقيل : فظًّا : أي في الأقوال غليظ القلب: أي في الأفعال .

وقيل أن الفظّ: سيء الخلق في الأمور الظاهرة من الأقوال والأفعال وغليظ القلب السيئ في الأمور الباطنة .

فإن قيل : إذا كانت الفظاظةُ تنشأُ عن الغلظة ، فلم قُدمَتْ عَلِيْهَا ؟ فالجوابُ: قُدِّم ما هو ظاهر للحس على ما خافٍ في القلب ؛ لأن الفظاظة : الجفوة في العِشْرَة قولاً وفعلاً – كما تقدم – والغلظة : قساوة القلب ، وقيل الفظ : الجافي ، والغليظ : القاسي القلب معناهما واحد ، فجمع بينهما تأكيدا . [٢]

وحقيقة الغليظ : القويّ المتين الخلق ، واستعير الغليظ للعظيم الرفيع في جنسه ؛ لأن الغليظ من كل صنف هو أمكنُه في صفات جنسه،والغليظُ الجانبِ ، السيئ الخُلُق وهو مستعارٌ من الفَظِّ ، وهو ماء الكرش ، " وهو الماء الذي يكون في أكراش الإبل يعتصره العربي ويصفيه ويشربه عند العوز إلى الماء في الفلوات " [٣] وهو مكروه شُربه إلا في ضرورة .

وعلي ذلك تكون إضافة الغلظ إلى القلب إضافة مجازية ، حيث شبهت قسوة القلب وجفائه بالغلظ المحسوس في الأجسام بجامع عدم اللطف والدقة في كلٍ ، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به ، واشتق من الغلظ غليظ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

---

[١] راجع نظم الدرر ٥ / ١٠٦.

[٢] راجع تفسير تفسير العز بن عبد السلام / اختصار النكت للماوردي للإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي الشافعي ١/٢٩٠دار ابن حزم – بيروت الطبعة الأولى تحقيق د / عبد الله بن إبراهيم الوهبي .

[٣] تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ١٤ /٢٦١ط/ دار إحياء التراث العربي.

﴿ لانفضوا من حولك ﴾ يقول الراغب : " الفض: كسر الشيء والتفريق بين بعضه وبعضه ، كفض ختم الكتاب ، وعنه استعير: انفض القوم " [1] ، ومنه انفضاض الناس ، وكأن اجتماع كلمة الناس واتباعهم لقائدهم يشبه تلاحم الجسد الواحد،فإذا نفروا تفرقوا كتفرق وتناثر أجزائه ، وذلك علي سبيل الاستعارة التبعية .

وهذه الصورة الكلية المستفادة من الاستعارة – غليظ القلب ، لانفضوا – ترسم الأثر المترتب علي سوء الخلق وجفاء الطبع في معاملة الناس ، وهي بذاتها منفية عن النبي ﷺ بحرف " لو " الذي يفيد امتناع لامتناع، وهذا كله يؤكد الصورة المثبتة له – وهي اللين والرحمة – وهذا من باب تأكيد الشيء بنفي ضده ، وهو لون من ألوان التأكيد البلاغي، وذلك للتأكيد على جانب المرحمة التي فطر عليها النبي ﷺ ، ليضيف جانبا آخر من الثناء والمدح له ﷺ ، ولعل تأكيد هذا المدح والثناء يعطي إيحاءا بما سيطلب منه عقب ذلك وهو قوله :

﴿فاعفو عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ أي لما كان الأمر كذلك من لين طبعك وانتفاء الجفاء عن قلبك ، فاعفو عنهم فيما يخص حقك ، واستغفر لهم فيما يخص حق الله عليهم ، وإتماما للشفقة عليهم وإكمالا للبرّ بهم شاورهم في الأمور المهمة ومنها أمر الحرب ، وهذا فن بديع من فنون البلاغة يطلقون علية صحة التقسيم [2] ، بحيث يستوفي الكلام كل أقسام المعنى ، فقد استوفى الكلام كل أحوال المؤمنين لإظهار العفو والرضا عنهم .

وقوله : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي : فإذا عقدت قلبك على أمر بعد

---

[1] مفردات ألفاظ القرآن ٢ / ١٩٦.

[2] "يطلق التقسيم على أمرين أحدهما أن يذكر أحوال الشيء مضافا إلى كل حال ما يليق بها.. والثاني استيفاء أقسام الشيء بالذكر" الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ط / دار إحياء العلوم – بيروت.

الاستشارة فاجعلْ تفويضك فيه إلى الله تعالى ، فإنه العالم بالأصلح لك ، والأرشد لأمرك ، لا يعلمه من أشار عليك ، والعزم هو تصميم الرأي على الفعل ، وحُذف متعلَّق ﴿ عزمت ﴾ لأنَّه دلّ عليه التفريع عن قوله : ﴿وشاورهم في الأمر ﴾ ، فالتقدير : فإذا عزمت على الأمر . وقد ظهر من التفريع أنّ المراد : فإذا عزمت بعد الشورى أي تبيّن لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فعزمت على تَنفيذه سواء كان على وفق بعض آراء أهل الشورى أم كان رأياً آخر لاح للرّسول سدادُه،فأمضه متوكلا على الله .. لأنّ التوكّل علامة صدق الإيمان ، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته ، واعتقادُ الحاجة إليه ، وعدم الاستغناء عنه وهذا ، أدب عظيم مع الخالق يدلّ على محبّة العبد ربّه فلذلك أحبَّه الله . [1]

وفي قوله ﴿ فتوكل على الله ﴾ إدخال للروعة والمهابة في نفس المخاطب ، حيث إنّ مُقْتَضَى الظّاهر يستدعي أن يقال : " فتوكَّلْ عليه إنَّه يحبُّ المتوكلين " .

لكن وُضع الاسم المظهر وهو لفظ الجلالة ﴿الله﴾ موضع الضمير لإدخال الروعة والمهابة ، نظرًا إلى أن لفظ الجلالة يجمع كُلَّ صفات كمال الله عزَّ وجلَّ، باعتباره اسماً علماً للذات العليّة ، وما هو اسم علم للذّات يكون جامعاً لكلّ صفات الكمال .[2] وقد فصل قوله : ﴿ إن الله يحب المتوكلين﴾ عن ﴿ فتوكل على الله﴾ لوقوعها موقع الإجابة عن سؤال لعلة الأمر بالتوكل ، وهذا موضع من مواضع الفصل يسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال .

وعلى الجملة فالبلاغة تلف الآية من أولها إلى آخرها فقد أتت الجمل فيها متتاليات متعاقبات منسوقة بعضها على بعض بحروف العطف ، ولو أفردت كل جملة لقامت بمعني مستقل ومنفرد ، وهذا ما يسميه أهل البلاغة بحسن النسق.[3]

---

[1] راجع البحر المحيط ٣/١٠٥،والتحرير والتنوير ٤ / ١٤٥.

[2] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص ٣٩٩.

[3] راجع الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم ص ١٩١ ط/ مطبعة السعادة

واستكمالاً لمظهر رحمة الله بخلقه بإرسال رسوله نعرج علي البلاغة في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

وردت هذه الآية في آخر سورة الأنبياء ، وقد أقيمت هذه السورة على عماد إثبات رسالة محمد ﷺ وتصديق دعوته فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد الله فيهم ، وإثبات رسالة محمد ﷺ وأنه لم يكن بدعاً من الرسل و ذكرت طائفة منهم على التفصيل ، وتخلل ذلك مواعظ ودلائل على صدق رسالته ،فجاء قوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ معطوفًا على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أُوتوا حكماً وعلما ، وذكر ما أُوتوه من الكرامات ، مشتملاً على وصفٍ جامعٍ لبعثة محمد ﷺ وميزتها على سائر الشرائع ميزة تناسب عمومها ودوامها . (١)

وقد صيغت بأبلغ نظم ؛ إذ اشتملت هاته الآية – بوجازة ألفاظها – على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومدح مرسله تعالى ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه .

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به، وذكر فيها الرسول، ومرسله ، والمرسل إليهم ، والرسالة ، وأوصاف هؤلاء الأربعة ، مع إفادة عموم الأحوال ، واستغراق المرسل إليهم .

ومن بلاغة النظم فيها أنها صيغت في عدة صور من صور التوكيد : أولها أسلوب القصر الذي هو أداة وصورة من صور التوكيد الرائعة الذي يدل علي المعنى المراد في دقة متناهية وإيجاز بديع،والقصر واقع بين الكاف في ﴿ أرسلناك ﴾ والحال ﴿ رحمة للعالمين ﴾ قصر موصوف علي صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقياً (*)

بمصر.

(١) راجع التحرير والتنوير ج ١٧ ص ١٦٥.

(*) القصر الحقيقي : هو أن يختص المقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع بألا يتعداه إلى غيره

لتحصر الغاية من إرسال الله عز وجل لرسوله في كونها صورة من صور الرحمة الإلهية بعباده .

ثانيها: تنكير ﴿ رحمة ﴾ لقصد التعظيم ؛ إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم، وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين ، أو إلا أنك الرحمة للعالمين ، وليس التنكير للإفراد قطعا ؛ لظهور أن المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم .

ثالثها : انتصاب ﴿ رَحْمَةً ﴾ على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة، ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها ، ومن المعلوم أن عنوان الرسولية ملازم له في سائر أحواله ، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة .

رابعها: وقوع الوصف مصدرًا ليفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله ، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه النبي ﷺ بقوله "إنما أنا رحمة مهداة " . [1]

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة،فقد زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخلق .

والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة

أصلا / انظر جواهر البلاغة في المعان والبيان والبديع / ص ١٨٣ – ١٨٥ .

[1] المستدرك على الصحيحين/محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ١ / ٩١ ط دار الكتب العلمية – بيروت تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا.

العامة للخلق كلهم لأن قوله تعالى: ﴿ للعالمين ﴾ متعلق بقوله : ﴿رَحْمَةً﴾.[1]

والتعريف في ﴿ العَالمَينَ لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم .

والمعنى أن الله رحم العالمين بإرسال هذا النبي الرحيم إليهم ، لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة، في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة وهداهم بعد الضلالة .[2]

---

[1] راجع التحرير والتنوير.

[2] انظر معترك الأقران ج ٢ ص ١٩٠.

المبحث الثالث

رحمة الله بعباده بإدخالهم جنته

رحمة الله بعباده ليست في الدنيا فقط بل في الآخرة أيضاً، حيث يجازي الله سبحانه وتعالى عباده الطائعين بالجنة التي هي محض فضل ورحمة من الله ، ولشدة ارتباط الرحمة بها سميت الجنة رحمة؛ لأنها محل الرحمة ،نجد هذا واضحا في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ {سورة آل عمران: ١٠٧} .

والآية هنا واردة في سياق الحديث عما توعد الله به أهل الكتاب المخالفين من العذاب الأليم تحذيرًا للمؤمنين في قوله:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم بين موعد هذا العذاب فقال : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوه وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ثم بين ما يقال لهم من التوبيخ والتأنيب ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ثم ختم بما هو أنكى لهم في العذاب، وهو تنعيم أضدادهم من أهل الجنة فقال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي المؤمنين الأبرار السعداء الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحة . [١]

والآيات هنا من قبيل اللف والنشر غير المرتب [٢] حيث أخر الكلام عن الذين ابيضت وجوههم على الرغم من وجودها في اللف أولاً؛ لأن الكلام وارد في مقام الترهيب، فناسب أن يتكلم عن العذاب أولاً ، ثم ذكر ما أعده لمن هو على

---

[١] راجع نظم الدرر ٥/ ٢١.

[٢] اللف والنشر، وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم "ذكر" ما لكل واحد من غير تعيين ؛ ثقة بأن السامع يرده إليه /بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة تأليف:عبد المتعال الصعيدي ٤٢١/١ ط / مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م .

خلاف حالهم فقال : ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ﴾ وقد جاءت الواو هنا لاتصال والكلام ووجود الجهة الجامعة بينها،واتحاد الجملتين في الخبري لفظاً ومعنى ، وقد أراد الله مدح هذا الصنف المؤمن بوصفهم ببياض وجوههم كناية عن القبول والرضا ، ثم أكد ثبوت هذه الصفة عن طريق استخدام التعريف بالاسم الموصول " الذين " حيث إن الاسم الموصول في رتبة المعرف بأل العهدية ،يؤكد ذلك مجيء صلت الموصول " أبيضت " بصيغة الماضي للدلالة علي التحقق والثبوت ، بعد التحول من حال إلى حال والذي دلت عليه صيغة افعلّ أي ابيضت وجوههم وتحولت إلى هذا النور بسبب أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا .

ثم أخبر عن مآلهم وما صاروا إليه فقال ﴿وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله﴾ أي في الجنة ، فهو من قبيل التعبير بالحال عن المحل ففيه مجاز مرسل علاقته الحالية ، والظرفية حقيقية ، وإنما عبر عن الجنة بالرحمة إشعارًا بأن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى ، وقد يراد بها الثواب، فالظرفية حينئذ مجازية كما يقال : في نعيم دائم وعيش رغد ، وفيه إشارة إلى كثرته وشموله للمذكورين شمول الظرف، ولا يجوز أن يراد بالرحمة ما هو صفة له تعالى؛ إذ لا يصح فيها الظرفية ، ويدل على ما ذكر مقابلتها بالعذاب ومقارنتها للخلود في قوله تعالى : ﴿هم فيها خالدون ﴾ وجملة هم فيها خالدون استئنافية وقعت جوابا عما نشأ من السياق كأنه قيل: كيف يكونون فيها فأجيب بما ترى ، ولذا فصلت ، وهذا ما يسميه البلاغيون الفصل لشبه كمال الاتصال ، وفيها تأكيد في المعنى لما تقدم ، وتقديم الجار والمجرور " فيها " للمحافظة على رؤوس الآي والضمير المجرور راجع للرحمة . [1]

وقد جاءت جملة ﴿ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾واقعة في جواب أما بعد"

---

[1] راجع روح المعاني ٤ / ٢٦.

الفاء " والجملة جاءت اسمية للدلالة على الاستمرار والثبوت أي استمرار جودهم في الجنة وثبوتهم فيها .

وقد كرر " في " في كل واحدة منها للدلالة علي استقلال المعنى في كلٍ، فالمعنى مع ﴿ في رحمة الله ﴾ أي أنهم في رحمة الله ، والمعنى مع "فيها خالدون" أي أنهم في الرحمة خالدون . [1]

[1] راجع حدائق الروح والريحان ٥ / ٥٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي رحم عباده برحمته التي وسعت السماوات والأرض وأنزل القرآن رحمة منه على عباده ، الرحمن الرحيم ، وأرسل محمد ﷺ رحمة منه وخلق الجنة رحمة منه وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ .

وبعد ،،،،

فرحمة الله لا تقتصر على ما ذكرت في هذا البحث وحديثي عنها نقطة في بحر رحمة ربي ، وقد خرجت الدراسة ببعض النتائج ، أذكر منها :

أولاً : عند الحديث عن سعة رحمة اله تعالى في آية فرض القصاص صُدِّر الحديث بأسلوب من أساليب الإنشاء الذي لا يحتمل الكذب والصدق وهو أسلوب النداء ووصفهم بصفة حبيبة إلى نفوسهم وهي صفة الإيمان فقال : " يا أيها الذين آمنوا " وذلك لأنه حديث عن أمر مهم يقتضي الإنصات بوعي ويقظة عالية ، والنداء تنبيه للغافل وإيقاظ للساهي وتأكيد على أن ما يتلوه أمر مهم يقتضي أن ترعه سمعك .

ثانياً : لما كان الحديث في آية القصاص عن التخيير بين العفو وأخذ الدية يصور جانبًا ولونًا من ألوان رحمة الله تعالى بخلقه وليس ذلك كل رحمة الله ناسب أن تأتي الرحمة بصورة التنكير بدون أل فقال : ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ أي هذه صورة وجزء من رحمة ربكم وشفقته بكم .

ثالثا : أما عند الحديث عن سعة رحمته تعالى وعفوه عن المذنبين المسرفين وقبوله للتائبين يفتح أمامهم باب الرحمة واسعًا فيضيف الرحمة إلى نفسه فيقول : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾فجاءت الرحمة معرفة ومضافة إلى لفظ الجلالة تعظيمًا لشأن هذه الرحمة

ترغيبًا للإقبال على التوبة والإنابة وعدم اليأس بسبب كثرة الذنوب .

رابعًا : عند الحديث عن رحمة الله تعالى لمن أقبل عليه مؤمنًا تائبًا جاءت الآية بأسلوب الشرط وجوابه وهو قوله : ﴿ وإذا جاء الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾وهو أسلوب يوحي بالتأكيد لربطه الجزاء بالشرط ، كما استعمل أسلوب التقديم والتأخير عندما قدم الجار والمجرور " على نفسه " على المفعول به " الرحمة " في قوله : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ اهتمامًا بتقرير ما أوجبه على نفسه ،كما جاء استعمال الرحمة معرفا بـ " أل " التي تفيد الاستغراق لتشمل كل معاني الرحمة حتى لا يقنط من رحمته أحد .

خامسًا : كما أنه وعد وعدًا مؤكدًا برحمته فاستعمل ما يوحي للمخاطب بالإيجاب على نفسه وذلك مثل قوله " كتب " التي توحي بالقطع والإلزام ، وقد خوطب الخلق بما يعقلون فهم يعقلون أن توكيد الشيء المؤخر إنما يحفظ بالكتابة ، وهذا التعبير أثار الاهتمام وأكده وجعل الآيات متناغمة قوية في إيصال المعنى وتقريبه إلى ذهن السامع أو المخاطب .

سادسًا : في آية نزول القرآن رحمة من الله وفي آية إرسال الرسول ﷺ رحمة من الله حيث جاءت آية إرسال الرسول ﷺ رحمة بأسلوب القصر وجاءت آية إنزال القرآن رحمة متضمنة أسلوب القصر ، وذلك لأن أسلوب القصر في الآية الأولى أفاد إثبات أن القرآن وحي من الله ونفت أن يكون افتراء من الرسول ﷺ ، وأفادت إثبات أن الرسول أرسل رحمة من الله للعالمين ونفت غير ذلك عنه في الآية الثانية ، فأسلوب القصر فيه إيجاز حين أكد ونفي معاني عظيمة في ألفاظ قليلة ، وغيرها من ألوان البلاغة .

سابعًا : إضافة الرحمة إلى نفسه ﴿ ففي رحمة الله ﴾ وفي المقابل عدم إضافة العذاب إليه وهذا مما يليق بمقام الربوبية، فالرب رحيم من شأنه أن يسع

عباده بالرحمة، وأما العذاب فهو تأديب حتي يعود العبد لذا ناسب ألا يضاف العذاب إليه وفي آية إدخال المؤمنين الجنة رحمة من الله ، الانتقال في استعمال الجمل الاسمية والفعلية ولما تفيده الاسمية من الاستمرار والثبوت وما تفيده الفعلية من التجدد والحدوث حيث أفادت في توصيل المعاني وتقريرها في اذن المخاطب وأيضاً استعمال المجاز المرسل وذلك عندما عبرنا عن الرحمة وأراد الجنة ، فهو عبر عن حالهم فيها وأراد المحل وهو الجنة التي هي مكان تنزيل الرحمة ، وغيرها من ألوان البلاغة .

" هذا والله اعلم "

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١ – الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق : أحمد بن علي ط دار الحديث – القاهرة .

٢ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، ط/دار الكتاب العربي بيروت .

٣ – أسباب النزول للإمام السيوطي / دراسة وتحقيق حامد أحمد الطاهر ط – دار الفجر للتراث / القاهرة / الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

٣ – أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني – ط دار المدني بجدة الطبعة الأولى تح محمود شاكر

٤ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / تأليف الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي / إشراف بكر بن عبد الله / جمعه : محمد أويس الندوي / حققه / محمد حامد الفقي / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

٥ – الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ط/ دار إحياء العلوم – بيروت.

٦ – إعراب القرآن الكريم / للأستاذ الدكتور محمد الطيب الإبراهيم ط دار النفاس – بيروت – لبنان / الطبعة الثالثة ٢٠٠٦ م .

٧ – البرهان في علوم القرآن للزركشي ط / دار المعرفة – بيروت تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٨ – البلاغة العربية أسسها وفنونها – عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني/ دار القلم – الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ .

٩ – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة تأليف:عبد المتعال الصعيدي ط/مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

١٠– بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم / تأليف الدكتور علي أبو القاسم عون / الطبعة الأولى / دار المدار الإسلامي / توزيع دار أويا / طرابلس الجماهيرية .

١١ – التحرير والتنوير / تأليف الشيخ محمد الطاهر بن محمد الطاهر عاشور ط الدار التونسية .

١٢– التعريفات للجرجاني / باب الراء / ط دار الكاب العربي – بيروت – لبنان / الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / تحقيق إبراهيم الإبياري .

١٣ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير تح مصطفي السيد محمد وآخرون ط/ مؤسسة قرطبة الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .

١٤– تفسير الحداد – كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل لأبي بكر الحداد اليمني / تحقيق الدكتور : محمد إبراهيم يحي – أستاذ تفسير القرآن وعلومه بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية – زليتن – ليبيا – ط دار المدار الإسلامي .

١٥ – تفسير بن القيم للإمام ابن القيم / جمعة محمد أويس الندوي / حققه : محمد حامد الفقي / ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

١٦– تاج العروس للزبيدي تحقيق مجموعة من المحققين / ط دار الهداية .

١٧ – الجامع لأحكام القرآن / تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي /تقديم هاني الحاج – حققه وخرج أحاديثه – عماد زكي البارودي وحنيري سعيد – المكتبة التوفيقية .

١٨- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع / تأليف السيد المرحوم احمد الهاشمي / منشورات دار إحياء التراث العربي – لبنان .

١٩- حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي ٣٤٤/٧ ط/دار صادر بيروت .

٢٠ – حاشية شيخ زادة علي تفسير البيضاوي ط/دار صادر بيروت .

٢١ – حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن / تأليف الشيخ العلامة : محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي – إشراف ومراجعة الدكتور : هاشم محمد بن حسين مهدي .

٢٢ – دلالات التراكيب د محمد أبو موسى ط/ مكتبة وهبة الطبعة الثانية.

٢٣ – دلائل الإعجاز في علم المعاني / تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق / السيد محمد رشيد رضا / ط دار المعرفة ١٩٧٦ م .

٢٤ – روح المعاني للآلوسي ٤٩/٢ ط / دار إحياء التراث العربي .

٢٥ – صفوة التفاسير / تأليف الشيخ محمد علي الصابوني / ط دار الصابوني – القاهرة .

٢٦ – صحيح البخاري / تحقيق مصطفى ديب البنا / / ط دار بن كثير اليمامة – بيروت .

٢٧ – صحيح مسلم للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري اليسانوري / ط دار الفكر – بيروت – لبنان / كتاب الجنة وصف نعيمها وأهلها .

٢٨ – عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص دار الكتب العلمية .

٢٩ – الفروق اللغوية / الطبعة الأولى / لأبي هلال العسكري / موقع المكتبة الشاملة .

٣٠ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري / للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني / عن الطبعة التي حقق أصلها عبد العزيز بن عبد الله بن باز / ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي / دار التقوى للتراث / ط المكتبة الإسلامية " عين شمس " مكتبة الأدب .

٣١ – الكافي في علوم البلاغة العربية / تأليف الدكتور : عيسى علي العاكوب والأستاذ : علي سعد الشتيوي / منشورات الجامعة المفتوحة – سنة ١٩٩٣ م

٣٢ – الكشاف للإمام الزمخشري / رتبه وضبطه وصححه / مصطفى حسين أحمد / ط دار الكتاب العربي .

٣٣ – لسان العرب / لابن منظور / طبعة جديدة محققه ومشكولة شكلاً كاملاً.

٣٤ – الماحي الفصيح الطبعة العاشرة / ط مجمع اللغة العربية – القاهرة .

٣٥ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ط/ المكتبة العصرية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

٣٦ – المحرر الوجيز لابن عطية ط دار الكتب العلمية .

٣٧ – المستدرك على الصحيحين / محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ط دار الكتب العلمية – بيروت تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا.

٣٨ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / بحاشية المصحف الشريف وضعه محمد فؤاد عبد الباقي – ط دار الحديث – القاهرة ٢٠٠١ م .

٣٩ – المعجم الوجيز / طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم / مجمع اللغة العربية – القاهرة – الطبعة الثالثة / ٢٠٠٤ م – الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية .

٤٠ – معترك الأقران في إعجاز القرآن / للشيخ الإمام العلامة أبي الفضل جلال الدين السيوطي / صححه وطبعه أحمد شمس الدين الطبعة الأولى / ط دار الكتب العلمية .

٤١ – موسوعة الجامع الصحيح للأحاديث القدسية / جمع وإعداد الشيخ عبد القادر عرفات العشاحسونة / ط دار الفكر – بيروت – لبنان – ٢٠٠٢ م

٤٢ – معاني القرآن وإعرابه للزجاج / شرح وتحقيق الدكتور : عبد الجليل عبده شلبي / خرج أحاديثه الأستاذ / على جمال الدين محمد / ط دار الحديث ٢٠٠٤ م .

٤٣ – مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ط/ دار الكتب العلمية/ بيروت.

٤٤ – الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز تأليف أبي عبدالله الحسين بن محمد الدامغاني وما بعدها تحقيق عربي عبد الحميد علي ، ط دار الكتب العلمية .